

حسین الشافعی
نائب رئیس الجمہوریۃ

اقراء

فی سولہ النبیؐ





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



مسیرے الشافعی
نائب رئیس الجمورقة

فی سولہ النبی

اقرا ۳۴۱
دارالمعارف بمطرح

اقراً ٣٤١ - مايو سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

في أواخر القرن الخامس الميلادي كثرت أقوال الناس عن قرب ظهور نبي من بين العرب . وكان العرب يعملون بالتجارة ، ويسافرون إلى الشام وغيرها من البلاد المحيطة بشبه الجزيرة ، وكانت قريش قمة القبائل العربية ، ولا بد أنها سمعت ما يتردد خلال أسفار ساداتها ورحلاتهم . وكان أمية بن أبي الصلت من رواة هذه الأحاديث ، وسمعه أبو سفيان ابن حرب فقال له : « إن هؤلاء الرهبان ، إنما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون ، لأنهم في جهل من أمر دينهم ، فهم في حاجة إلى نبي يديهم عليه ، أما ونحن نتخذ الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى ، فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا ، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله » .

كان عبد المطلب سادن الكعبة - أى المسئول عنها - وكانت مكاناً مقدساً عند العرب يحجون إليه ، وكان لا يتولى هذا المنصب سوى القبائل والأسر الشريفة ، وكانت سدانة « الكعبة » تجعل القائم بها صاحب الأمر المطاع في مكة كلها .

وكان عبد المطلب جد الرسول في السبعينات من سنى حياته ، عندما حاول أبرهة الحبشى مهاجمة مكة وهدم بيت إبراهيم ، وكان ابنه عبد الله في الرابعة والعشرين ، فاختار له زوجة هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، وفي اليوم الذى تزوج فيه عبد الله ، تزوج أبوه عبد المطلب من هالة ابنة عم آمنة ، فأولدها حمزة عم النبي الذى كان في مثل سنه .

وبعد أشهر قليلة توفي عبد الله ، وعاشت آمنة في بيت عبد المطلب حتى وضعت .

وكان مولد النبی ، كما تقول بعض الروایات ، مصحوباً بعلامات وإشارات ، تعلن مولد طفل عظيم ذلك أن أمه لم تتحمل أى مشقة في حمله أو ولادته ، وانبعثت يوم مولده أنوار عظيمة أضاءت ما بين المشرق والمغرب

وقيل إن السماء والأرض ارتجتا لمولده ، وغاضت مياه بحيرة « ساوى » ، وجفت جوانبها ، وقاضت مياه دجلة ، واهتز عرش كسرى ، وسقط كثير من أبراج قصره ، ورأى « الموبان » خادم النار الأول عند الفرس رؤيا في منامه أن فرساً عربياً قد صرع جملاً ، وقص حلمه في الصباح على كاهن فارس ، ففسره بأن بلاد فارس ستهدد بخطر قادم من بلاد العرب .

وفي تلك الليلة الخالدة ، انطفأت نيران زرادشت المقدسة التي ظلت تشتعل دون توقف منذ آلاف السنين ، وسقطت جميع أصنام العالم على الأرض

وكان عبد المطلب عند الكعبة ساعة مولد حفيده ، وإذا أبلغ النبأ فرح فرحاً عظيماً ، وهرع إلى الدار وحمل الوليد إلى الكعبة ، وهناك سماه « محمداً » ، ولم يكن هذا من أسماء العرب المتداولة ، وإن كان معروفاً . وكانت عادة أشراف العرب أن ترضع أطفالهن المراضع ، فرضع الوليد أولاً من ثويبة جارية عمه ألى لهب ، ثم تسلمته حليلة بنت أبى ذؤيب من قبيلة بنى سعد ، ولهذا أطلق عليها « حليلة السعدية » .

ويقول كتاب السيرة العرب إن العناية الإلهية كانت ترعى حليلة طوال فترة بقاء الطفل في رعايتها ، فلم تجف الآبار والعيون ، وظلت

المراعى دائماً خضراء ، وتضاعف عدد أغنامها ، وعم الخير أرضها
 قالت حليلة : « ثم قدمنا منازلنا ، من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أن فى
 أرض الله ما هو أجذب منها ، فكانت غنمى تروح ترعى وتأتى شباعاً ،
 فنحلب ونشرب » .

ولد محمد قبل إشراف نجمة الصباح بلحظات يوم الاثنين لاثنتى عشرة
 ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل (٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية) .
 وقد ولد نظيفاً مختوناً .

وهناك خلاف بين المؤرخين حول العام الذى ولد فيه الرسول ، ولكن
 أكثرهم أجمع على أنه عام الفيل ، أى سنة ٥٧٠ ميلادية ، واختلف
 المؤرخون أيضاً حول الشهر الذى ولد فيه ، وإن كانت الأغلبية قد أقرت
 أن مولده كان فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول .

يقول وشنتون إيرفينج المؤرخ المستشرق الأمريكى (١٧٨٣ -
 ١٨٥٩) إن محمداً ولد فى شهر أبريل عام ٥٦٩ ميلادية ، ويذكر
 ابن هشام أن مولده كان يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول من عام الفيل ،
 ويقول العلامة محمود الفلكى المصرى إن تاريخ المولد هو صباح اليوم التاسع
 من ربيع الأول .

وفى اليوم السابع لمولده أمر عبد المطلب بنحزور فنحرت ، ودعا رجالا
 من العشيرة فجاءوا وأكلوا ، وإذ سألوا عبد المطلب عن سبب تسميته
 حفيده محمداً ، قال : « أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض
 لخلق الله » .

بعد مولد محمد بأيام ، حضر إلى مكة نساء من بنى سعد ، يضرب
 لونهن إلى السمرة ، ويلوح عليهن أثر إقليمهن الصبحى ، حضرن يلتمسن
 الأطفال عند الأشراف ، فنالت منهن حليلة السعدية شرف إرضاعه .

تقول حليلة : كانت سنة جدباء ، لم تبق لنا شيئاً ، فصيرتني وزوجى فى فقر مدقع أفعزمتنا على الخروج إلى مكة فى رفقة نسوة من بنى سعد ، نلتمس جميعاً الرضعاء ، ليساعدنا آباؤهم على ضرورات الحياة .

وكانت الأتان التى أركبها من الهزال والضعف حتى خشينا أن تنفق فى الطريق ، ولم نتم ليلنا حتى صبينا الذى كان معنا ظل يبكى لما يجده من ألم الجوع ، ولم يكن فى ثدى ، ولا فى أخلاف الناقة التى يقودها زوجى قطرة من لبن ، نهدي بها من جوعه . . لقد استولى على اليأس فى أثناء الليل ، وتساءلت كيف يمكننى وأنا فى تلك الحالة ، الزعم بأن فى مقدورى القيام على تنشئة طفل ؟

ووصلنا أخيراً إلى مكة ، وقد سبقنا إليها النسوة ، فأخذن الأطفال ، ماعداً محمداً . كان والده قد مات قبل مولده ، وكانت أسرته قليلة اليسر ، برغم مكانتها العليا بين سادات قريش ، وأبت النسوة الأخريات احتضانه . وامتنعت أنا وزوجى عن احتضانه للأسباب نفسها ، أعنى اليتيم وعدم الثراء . غير أنى فى النهاية خجلت أن أرجع ولم آخذ رضيعاً فأكون — فضلاً عن الإخفاق — موضع السخرية ، ثم إنى شعرت بعطف متوقد نحو ذلك الطفل البارع الجمال ، الذى قدرت أن هواء مكة الفاسد سيؤذيه .

ملأت العاطفة جوانحى ، وشعرت — بالمعجزة ! — باللبن يعود إلى ثدى متحفزاً . . . ! فقلت لزوجى :

— والله إنى لأجد رغبة ملتهبة فى أن آخذ هذا اليتيم ، مهما كان الأمل فى الخير الذى يعود علينا من أسرته ضعيفاً .

— لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وهكذا . لم أتمالك نفسي . فأسرعت مهرولة نحو الطفل الوسيم . فوجدته وسنان . فوضعت يدي على صدره اللطيف ، فابتسم . وفتح عينيه اللتين تشعان نوراً ، فقبلته بينهما ، وأخذته ورجعت به إلى رجلي ، ثم وضعتني في حجرى ، وألقمتني ثديي الأيمن ليتغذى منه بما شاء الله ، فوجد فيه - على دهشة منى - ما يشبعه . ثم منحته ثديي الأيسر ، فرفضه ، تاركاً إياه لأخيه من الرضاعة واتبع ذلك دائماً .

وأعجب من هذا أن زوجي قام إلى ناقتنا ليهدئ ثائرة الجوع التي تلهب بين أحشائه ، فإذا أخلافاها حافلة باللبن ، فحلب منها وشرب ، وشربت أنا معه حتى ارتويانا وشبعنا ، وبتنا بخير ليلة ، وما كنا ننام من قبل .

وواصلت حليلة الحديث عن غنمها وكيف كانت المرعى الحصب ، كان النبات يترعرع لمقدم غنمها ويدبل عقب مرورها مباشرة . « فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفطمته » .

وتواصل حليلة الحديث قائلة : « كان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، يبعد عن الأقدار ، لا يبكي ولا يصرخ . . . أما إذا قلق في أثناء الليل ولم ينم ، فكنت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر في إعجاب إلى النجوم ، فيستولي عليه السرور ، حتى إذا شبع عينا من هذا المنظر أطبقهما ، وأخذ النوم بمعاقد أجفانه » .

أقام محمد في الصحراء سنتين ترضعه حليلة ويسرع بنموه الهواء النقي ، وبعد السنتين ذهبت به حليلة إلى أمه ، ولكن الأسرة اتفقت على أن يعود مرة أخرى إلى الصحراء خوفاً عليه من وباء كان يجتاح مكة وقتئذ ، فأقام في البادية نحو سنتين آخرين .

وعندما أصبح محمد في الثالثة من عمره ، وبينما كان يلعب مع أخيه في الرضاعة ، ظهر له ملكان يشع منهما النور ، فأرقدا محمداً

في رفق على الأرض ، وشق أحدهما ، وهو جبريل ، صدره ، دون أن يسبب له ألماً ، ثم نزع قلبه وطهره من الحقد والشر اللذين زرعاً في القلوب منذ آدم ، واللذين يدفعان البشر إلى ارتكاب الآثام ، ثم ملأ الملكان قلبه بالمعرفة والنور ، ثم أعاده إلى مكانه في صدر الطفل . ويستند القائلون بهذه الرواية إلى حرفية الآيات القائلة : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) .. وإن كان بعض الأئمة يذهبون إلى أن ما يشير إليه القرآن إنما هو عمل روحى بحت ، الغاية منه تطهير هذا القلب ليتلقى الوحي خالصاً ، ويؤدي الرسالة مخلصاً ، ويحتمل عبثاً المضنى .

ويذكر المؤرخون أنه كان بين كنى الطفل « خاتم النبوة » ، وظل هناك طوال حياته دليلاً على صدق نبوته . أما الكفار فقد اعتبروه خالاً (حسنة أو وحمة) كبير الحجم ، إذ كان في حجم بيضة الحمامة . وحينما علمت حليلة وزوجها بقصة الملكين ، شعرا بالخوف على الغلام ، فقد ظنا أن هذين الزائرين من أشرار الجن الذين يجوبون — كما كانوا يعتقدون — الصحراوات الخالية ويوقعون الأذى بالأطفال ، ولذا عادت حليلة بمحمد إلى مكة وأعادته إلى أمه .

ويقول إيرفينج — نقلاً عن رواية السيرة — إن محمداً ، بعد أن أعادته حليلة إلى أمه ، ظل في رعاية والدته حتى السادسة من عمره ، وحينذاك صحبته أمه إلى « يثرب » — المدينة — لزيارة أقاربها من قبيلة عديج ، ولكنها مرضت خلال عودتها إلى مكة ، ثم توفيت عند بلدة « الأبواء » ، وتقع على الطريق بين مكة والمدينة ، ودفنت هناك ، وحرص محمد طوال حياته على زيارة قبرها .

وكان لآمنة جارية حبشية تدعى « بركة » — وهى أم أيمن — فبعد

أن توفيت آمنة أصبحت بركة لمحمد في مقام الأم ، فعادت من هذه الرحلة ، وسلمته إلى جده عبد المطلب ، فظل محمد في رعايته نحو عامين ، حتى إذا شعر عبد المطلب بتقدمه في السن واقترب يومه ، نادى أبا طالب - وكان أكبر أولاده - وطلب منه أن يضع محمداً في رعايته ، وضم أبو طالب محمداً إلى صدره ، وأصبح له كالأب . وظل محمد في رعاية عمه الذي ورث سداثة الكعبة .

عاد محمد إلى مكة وهو في الخامسة من عمره ، وقد كان أحب أحفدة عبد المطلب إليه ، فقد مات أبوه عبد الله قبل مولده ، وماتت أمه بعد حين ، فزاد حب عبد المطلب له . ولا بلغ محمد الثامنة من عمره توفي عبد المطلب - الذي كان في الثمانين - فكفله عمه أبو طالب الذي أحبه حتى كان يقدمه على أبنائه ، وكان يجد فيه من النجاة والذكاء وطيب النفس ما يزيده به تعلقاً .

ولا كان محمد في الثانية عشرة ذهب مع عمه في رحلة له إلى الشام ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها محمد مع قافلة تجارية ، وتروى كتب السيرة أنه التقى في هذه الرحلة براهب يدعى « بحيرى » ، وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوة ، وتقول بعض الروايات إن الراهب نصيح أهله أن يشددوا لافظة عليه لئلا يكتشف فيه اليهود أمارات النبوة فيناله منهم أذى .

وفي الشام عرف محمد الكثير : عرف أخبار الروم ، والنصارى وكتبهم ، وسمع عن الفرس وعبادتهم النار ، وحروبهم مع الروم .

وعاد محمد إلى مكة مع عمه ، وكان يخرج إلى الأسواق المجاورة في عكاظ ، حيث كانت تقام ندوات الشعراء ، وفي مجنة وذى الحجاز ، حيث استمع لإنشاد أصحاب المذاهب والمعلقات ، وهى قصائد ألفها شعراء الجاهلية ، وكانوا يكتبونها بماء الذهب على أستار من حرير

ويعلقونها على جدران الكعبة وغيرها ، وكانت أذناه تلتهم البلاغة العربية الأصيلة في مختلف فنون الشعر ، وكانت بصيرته تعي ما تستسيغ وتلفظ ما لا تراه خليقاً بالإعجاب . واستمع محمد كذلك إلى خطب اليهود والنصارى ، وكان هؤلاء يتحدثون عن التوراة والإنجيل ، ويدعون العرب إلى اعتناق اليهودية والمسيحية على اختلاف مذاهبها ، وكان يزن ذلك كله بميزان قلبه ، فيراه خيراً من الوثنية وعبادة الأصنام التي درجت عليها عشيرته .

وإلى جانب ذلك كله عرف محمد طرق القوافل في الصحراء وحمل السلاح ، فقد وقف إلى جانب أعمامه في حرب الفجار ، وهي حرب حدثت بين قريش وكنانة من جانب ، وبين قبيلة هوازن من جانب آخر ، وقد سميت الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم ، وكان العرب - قبل الإسلام - يمتنعون خلالها عن القتال ، ويعقدون أسواق تجارتهم ، ويحجون عند أصنامهم حول الكعبة ، وهناك خلاف حول دور محمد في تلك الحرب التي قيل إنها امتدت أربع سنوات ، فهناك من يقولون إنه كان يجمع السهام التي تقع من «هوازن» ويدفعها إلى أعمامه ليستخدموها ضد خصومهم ، وقال آخرون إنه اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . ولعل الحقيقة هي ما ذكره رسول الله بعد سنوات من رسالته ، إذ قال : « قد حضرت حرب الفجار ، (والحرب تؤث وتذكر) مع عمومي ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أني لم أكن فعلت » .

وفي فترة الصبا هذه ظهرت على محمد مظاهر الكمال والرجولة والأمانة ، حتى دعاه أهل مكة « محمداً الأمين » . وفي هذه الفترة انصرف إلى التفكير والتأمل ، وساعده على ذلك أنه كان يرعى الغنم ، وقد ذكر رعيه إياها بالفخر فأكثر الأنبياء رعاة الغنم ، ورعى الغنم الموهوب يجد في الجو الطلق خلال النهار ، وفي صفاء السماء وبزوغ النجوم في أفلاكها ليلاً ،

مواضع لتفكيره وتأمله ، ومما لاشك فيه أن حياة راعى الغنم تستدعى قوة الملاحظة والانتباه واليقظة ، حتى لا تقترب الذئاب ، وحتى لا تضل إحدى أغنامه في متاهات الصحراء ، فضلاً عن أن ذلك التفكير والتأمل صرفاه عن التفكير في الشهوات الدنيا ، وهكذا ارتفعت كل تصرفات محمد وأعماله عن كل ما يمس لقبه « الأمين » .

وحياة راعى الغنم ، الذى يقضى نهاره وليله في عمله ، وفي التفكير والتأمل ، لا يتيسر لصاحبها غنى ، وهكذا نشأ لايهم بالمادة ولا يعنى بها ، وكان لا يحتاج إلا إلى ما يقيم أوده ، وهو القائل : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

ورأى أبو طالب ، أن يجد لمحمد سبيلاً للرزق متسعاً ، فقد ناء بكثرة أولاده ، وإذا بلغه أن خديجة بنت خويلد لها تجارة واسعة — وكانت من بيوت بنى أسد الشرفاء — وأنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام ، سأل ابن أخيه ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين ، إذا كان يجب أن يعمل في التجارة ، فوافقه ، وتحدث أبو طالب إلى خديجة فوافقت .

وذهب محمد إلى الشام وبرفقته « ميسرة » غلام خديجة ، واستطاع محمد بأمانته ومقدرته ، أن يزيد ربح أموال خديجة . ولما باع ما معه اشترى من تجارة الشام ما رغبت خديجة أن يأتيها به وعاد محمد ليبلغها أخبار رحلته وربح تجارته وما جاء به ، وجاء « ميسرة » مع باقى القافلة فحكى لها عن محمد وخلقه وحسن تصرفه وأمانته ، فزاد إعزازها له ، وكانت في الأربعين من عمرها ، فاتصلت بصديقة لها وأبدت رغبتها في الزواج من محمد ، وبوسيلة ما سألت الصديقة محمداً : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما بيدي ما أتزوج به . .

وإذا يسرت له المطلب ، وذكرت له اسم خديجة ، استغرب أن تقبل

الزواج منه ، وهي التي سبق لها أن رفضت الطالبين من كبار رجال قريش ، فقد كانت تعتقد أنهم يطمعون في مالها . وتم الزواج بحضور عمها عمر بن أسد ، وبعض أعمام محمد .

وخلال عقد القرآن خطب أبو طالب ، فكان مما قال : « إن محمد ابن عبد الله ابن أخي ، لا يوازن به فتي من قريش إلا رجح عليه برًا وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله فيد مثل ذلك ، وما أحببتهم من الصداق فعلى » .

زادت ثقة الناس في محمد فكانوا يحتكمون إليه في خصوماتهم ، وتروى قصة عن فطنة محمد وذكائه بعد أن تهدمت الكعبة نتيجة حريق شب بها ، واشترك الناس في إعادة بنائها ، وبقي في النهاية وضع الحجر الأسود في مكانه ، فقام نزاع عنيف بين القبائل ، فقد أرادت كل قبيلة أن تنفرد بهذا الشرف ، وأخيراً اتفق زعماء القبائل على تحكيم أول من يدخل من باب الحرم ، وأراد الله أن يكون الرسول الكريم هو أول من يدخل ، فحكم محمد ، فخلع رداءه الخارجي ووضع الحجر الأسود عليه ، وأمسك جميع رؤساء القبائل بأطراف الثوب ، ورفعوا الحجر وتسلمه محمد منهم ووضعه في مكانه .

وقد حدثت هذه الواقعة بعد زواج محمد وقبل بعثته .

الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ،
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ،
يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .)
(الأعراف : ١٥٨)

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى أَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)
(المائدة : ٨٣)

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ)
(الأعراف : ١٥٧)

هذه الخواطر وهذا الكتاب

فى موكب الذكرى العطرة ، لمولد نبي الرحمة المبعوث إلى الناس
كافة ، ونحن فى معركة مع أعدائه وأعداء الله ، يلح سؤال :

كيف نحى المولد النبوى ؟ . .

فى يقينى أن إحياء ذكرى المولد النبوى ، لا ينبغى أن يقف عند
السيرة الزمنية فحسب ، وإنما يجب أن يتجاوزها إلى مستوى النفع بالقدوة
الحسنة ، والدعوة للاقتداء بالمثل العليا المتجددة فى أخلاق وجهاد هذا
النبي العظيم . . فيأخذ عنها كل عصر أمام كل حدث ما يواكبه
وما يلائمه ، حتى لا تتكرر السيرة العطرة بمجملتها مكسدة . . فهذه السيرة
ليست مجرد سرد تاريخى محبب إلى كل إنسان ، وليس إحيائها موسم
محاولات لرسم شخصية خاتم الأنبياء ، وإنما هى أولاً ، وقبل كل شئ
أيام وأحداث هزت كيان البشرية ، وأنقذتها من شهوات النفس ومزلق
الهوى ، وأخرجت الناس - ذوى الألباب - إلى شريعة الرحمة والعدل
والحق والخير والسلام .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

هكذا خاطب الله نبيه ومصطفاه ، ولوحاولنا أن نتخذ من هذه الآية
الكريمة وحدها موضوع مؤتمر علمى يعقد فى ذكرى المولد النبوى ،
لوجدنا بين أيدينا مادة فكرية تحتاج فى تسجيلها إلى مجلدات ،
ولوجدنا فى أنفسنا طاقات مشعة تحيى فينا الموات . .

هى الرسالة إذن وهى الرحمة موضوع هذه الرسالة .. رسالة القرآن
الذى أنزل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آية فآية . . كل
آية تنزل فى مناسبتها ، ترتبط بالأحداث ، وترتبط بالأحداث
بالآيات . . . حتى نشأ جيل من البشر انفع بالوحي ، ففويت عقيدته ،

ونبت في قلبه الإيمان . . شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

هكذا شاعت حكمة الله أن ينزل الوحي مبيناً للأحداث ، لا ينفصل عن حياة الناس . . فأحس جيل الرسالة عظمة هذا الدين القيم ، وقد تمثلت في الكتاب الأعظم منهاجاً وسلوكاً وعملاً وحركة حياة .

ثم نأتى نحن اليوم في مطلع القرن الخامس عشر على مولد سيد البشر . . فنقرأ رسالته ، ونتذكر حياته ونضاله ، فلا تتجسم في أذهاننا الأسوة الحسنة ، ولا يتوافر لنا الاتفعال بالأحداث التي نزل بها القرآن ، وهي متجددة على طول الشهور والأعوام ، ولا نجد في أنفسنا تلك المشاعر التي وجدها المسلمون الأوائل ، فجعلت منهم - وهم بدو الصحراء - قادة الدنيا ومعلمي الناس الحق والخير والحرية . . لماذا ؟ . .

لأن الاحتفال بحياة النبي ، لا يعنى إنشاد السيرة بالنغم العذب ، وإنما يعنى أولاً استلهاهم رسالة النبي وكفاحه في سبيلها دليلاً إلى العمل الإيجابي . وما رسالة النبي سوى القرآن الكريم القائل في محكم آياته :

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) .

لقد تناول هذا الكتاب المبين كل حياة الناس في الدنيا والآخرة ، وقال بلسان من نزلت عليهم هذه الرسالة :

(مَا لِيَهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) .

هنا يبرز سؤال : كيف السبيل - مع شواغل الدنيا - إلى تدبر القرآن وفهمه وممارسة اتباعه والرجوع إليه عند كل شدة وأمام كل مشكلة ؟

الجواب أننا إذا لم نستطع أن نعيد ما حدث من أمجاد في صدر الرسالة ، فلا أقل من أن نلجأ إلى ساحة القرآن ، نلتمس في آياته نوراً يضيء ظلام أيامنا ، وحلولا لمشاكل عصرنا ، ونركز على فهم الآيات التي تطابق ما يمر بنا من أحداث ، ونبنى تفكيرنا وتديرونا على هذا الأساس .

بذلك يتكون الضمير الحي المدرك الذي يعيش الآية المناسبة ، فيزيد إحساسنا بفاعلية الرسالة ، وجلال تلك الآية . . فالقرآن الكريم في رأيي يتجاوز حلاوة الكلمة ورقة الأسلوب وروعة التعبير وبلاغة المنطق . . إلى التأصيل الموضوعي لكل ما يمكن أن تتعرض له البشرية من أحداث . .

أما عن السيرة والسنة ، ففيهما الترجمة الحية المتجددة لتطبيق الرسالة . . هي السلوك والأخلاق والقيم التي يجب أن نحياها في ذكرى مولد سيد البشر وكان خلقه القرآن .

ولنأخذ من الرسالة وتطبيقها ما ينفعنا في حاضرنا ، ليقترن بنا كل من يأتي بعدنا . .

نحن اليوم نعيش أحداثاً تزلزل أنفسنا . . نعيش أقصى وأصعب حياة عاشها المسلمون . .

لقد تجمع اليهود من فجاج الأرض وأخلاط الشعوب ، لينشئوا دولة باسم إسرائيل على أرض عربية اقتطعت بالسلاح . . ويقيمون فوقها كيئناً يعتمد في بقائه واتساعه على ما يمكن اقتطاعه أيضاً بالسلاح . . وهكذا يصبح وجودهم على حساب ضياع جزء منا نحن العرب . . وإنهم على هذه الصورة تجسّد لحال اللص الذي يدخل البيت سارقاً ، وقد استقر في نفسه شعور بأنه قاتل أو مقتول !

نحن العرب أمام إسرائيل ، لا يمكن أن نتصور أو يتصور أحد أننا نستطيع مساومتها أو مهادنتها ، إلا إذا ارتضينا أن تكون إسرائيل ولا يكون العرب .



إذن كيف السبيل إلى الدفاع الشرعى عن النفس؟ . .
 نعود إلى الرسالة التى لم تفرط فى شىء . . نعود إلى التركيز على الآيات
 التى تتصدى لمثل هذا الموقف . . نركز عليها ، ونؤصل تعرفنا على أساسها .
 بالمثل الأعلى والقدوة المثلى . . حتى نغرس فى جيلنا وفى أبنائنا عقيدة
 واقعية ، تعرف لكل هدف طريقه ، ولكل داء دواءه ، ولاتستغرقنا
 الكليات ، ونحن نعيش الحياة يوماً فيوماً ، وحدثاً فحدثاً . ولكل يوم
 آية ، ولكل حدث آية . .

وقد يكون هذا هو الأساس الذى تقوم به وعليه خطة التربية والتعليم . .
 وأسلوب الثقيف على جميع المستويات . . ودليل الإعلام فى كل
 المناسبات . . حتى تصبح هذه القيم أسلوبنا المتميز فى الممارك وفى السياسة ،
 وفى البناء والتقدم .

نحن اليوم نعيش معركتنا المصيرية ، ولا بد أن ننظر إلى إعجاز
 الرسالة فى مجال الحشد الحقيقى لقوانا العسكرية وقوانا الشعبية . . كل
 يتحرك من منطلق واحد أساسه التركيز على الهدف . . يصدر عن
 الآية ، ويقتدى بالأسوة . .

نحن فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا ، وهو تاريخ رسالتنا وعقيدتنا ،
 لم يعد يشغلنا شاغل عن طرد اللص من ديارنا وتطهير أرضنا من أعدائنا ،
 أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه وكل العقائد السماوية .

وقد عرض لى فى ذكرى المولد النبوى طول سنوات النكسة العارضة
 التى وقعت فى عام ١٩٦٧ ، أن أتبين معالم الطريق إلى الخلاص . .
 فى آى القرآن العظيم الذى لم يمنحنا الله إياه لنحمله كلاماً نحفظه ونرده
 فقط فى العبادات أو المناسبات ، أو لنجعله تماًم نتركبها ونستجلبها
 الخيرات ، ولا يمكن أن يكون المصحف زينة للمكتبات . .

إننا إذا وعينا آى الذكر الحكيم ، نستطيع أن نجد فيها ونقتبس

منها نوراً يهدي ، وعلاجاً يشفي ، وطاقات تزيل من طريقنا كل الصعاب وكل العقبات .

لقد تجمع اليهود بأسلحتهم فوق أرض العرب ، طبقاً لمخطط صهيوني اعتمدوا في تنفيذه على الولاء المتنقل لمن يساعدهم . . . فمرة كان الولاء الصهيوني لبريطانيا . . . ومرة يكون الولاء لأمريكا . . . حيث يكون مصدر القوة . . . ولا يدري أحد لمن يكون الولاء في المرة الثالثة وما بعدها . . . إنهم يستدرون عطف الأقوياء بدعوى الظلم الذي وقع على اليهود في كل العهود . . . وخرافة العداء للسامية هي الشرك الذي وقعت فيه دول كبرى ودول صغرى . . . وقد أراد اليهود بالترويج لهذه الخرافة أن يتجاوزوا نقطة الضعف التي بدءوا من عندها . . . ولاريب في أنهم تجاوزوها . . . لاجدال في أن الصهيونية قد استطاعت أن تصنع من ضعف اليهود ومسكنتهم قوة تحتل فلسطين . . . وصنعت من تشريد اليهود وطناً قومياً لايقنع بما اغتصبته إسرائيل بالعدوان ، وإنما ينظر بمطامعه إلى ما بين النيل والفرات ، وإلى ما وراء ذلك من أرض يريدون الاستيلاء عليها بقوة أعوانهم المضللين .

على هذه القاعدة يجب أن نستشعر الخطر بكل أبعاده . . . وإن حريق المسجد الأقصى ، وهدم القدس ، وتحويل « مسجد إبراهيم في الخليل » إلى معبد لهم . . . لم يكن ذلك وغيره من الجرائم سوى اختبار لوجود الأمة العربية بل الأمة الإسلامية . . . اختبار قامت به إسرائيل على استحياء . . . مخافة رد الفعل الذي تصوره .
لكن رد الفعل لم يحدث . . .

لأن عهود التخلف التي فرضت على المسلمين من داخلهم ومن خارجهم ، قد أفقدتهم الحمية التي كانت تقتضيهم ألا تمر هذه الجرائم بلا عقاب . . . لكنها مرت وقد يمر غيرها بلا عقاب .

لقد أدركت إسرائيل من واقعنا أنها أمام موت حقيقى . . أو على أحسن الفروض أمام استرخاء مطلق . . أو ربما سبات عميق . . أو لعله كل ذلك .

وهذا هو ما أغرى إسرائيل وسوف يغريها بأن تقيم هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . . وعندها ستكون القارعة التى تبعث الموتى وتوقظ النيام الغارقين فى الأحلام . . ثم يكون الشعور بالخطر أصلح مناخ لبعث القوة العارمة فى أصحاب هذه المقدسات . . وتنبت من جديد شجرة الإيمان التى تصنع المعجزات . . ترتوى بالرسالة وتقتدى بالرسول .

ماذا يقول القرآن الكريم فى هذه المحنة التى نعيشها اليوم نحن العرب؟.. ما هو حجم القوة التى نواجه بها هذا الخطر الداهم؟

فى الرسالة دليل العمل . . وفى الرسول مثل القيادة . . وفى جيل الرسالة نموذج المجتمع المؤمن الصادق الذى يحرك بإيمانه الجبال .

من هذا المنطلق يجب أن نتبين معالم الطريق . . إلى مواجهة الخطر بكل أبعاده ، ثم نقوم إلى العمل الذى ينجينا وينجى البشرية من هذا الخطر . .

إن مخطط أعداء الله وأعدائنا قد أصبح أعمالا تجاوزت الكلام والأمانى إلى أرض اقتطعوها بالسلاح ، وإلى خرائط للتوسع بالسلاح . حقيقة أن الخطر الصهيونى يهدد سلام العالم . . ولكنه قائم على أرضنا نحن العرب وفوق صدورنا . . أرض السلام أصبحت قاعدة للحرب ! والقاعدة العدوانية جائئة على صدورنا نحن العرب ونحن المسلمين . . فكيف نتزع أنفسنا من براتن هذا الخطر؟ . . .

إن القرآن يهديننا إلى مخطط نواجه به هذا الخطر المخطط . . وقد يسأل سائل أو أكثر : أمازلنا تفكر فى التخطيط . . إننا نريد

العاجلة . .

وذلك القول مردود بأن المسألة ليست مسألة زمن للتخطيط والتنفيذ يطول أو يقصر . . ليس هذا هو الأمر . . إن الأمر كل الأمر هو أن تشعر هذه الأمة المعتدى عليها بأن لديها تخطيطاً للنجاة من الأفعى: رأسها وأذناها . . ونشعر جميعاً بأننا قد تجمعنا على الطريق وبدأنا نسير . . نسير . .

إن شعوب الإسلام اليوم تحس أنها تعيش حياة الضياع . . حتى فقد الناس ثقتهم في أنفسهم ، وفي وجودهم ، وفي قياداتهم ، وأخشى أن يفقدوا القليل الباقي من إيمانهم .

لقد اتخذت من أيام ذكرى المولد النبوي الشريف ، والأعياد الإسلامية التي توالى بعد النكسة العارضة في عام ١٩٦٧ ، مجالا للاجتهاد في الدعوة إلى العمل بالرسالة ، وإلى اتباع الرسول ، جاعلا من حجم الأحداث وثقلها حافزا إلى دعوة الناس إلى ما يحييهم . .

وكانت سورة « الحشر » في القرآن الكريم . . هذه السورة وحدها . . هي موضوع خواطري التي تحدثت بها إلى الناس كلما دعيت إلى الحديث . . .

ومن هذه الخواطر تجمعت فصول هذا الكتاب ، وهي ترتبط بوحدة فكرية تقوم على الاجتهاد في تقدير الموقف .

ركزت على سورة الحشر ، وليس غيرها ، ففيها نفس الموقف : اليهود أمام الرسالة . . واليهود أمام الرسول . . وفي المدينة المنورة كانت المعارك الأولى . . وفي القدس وما حولها تدور المعارك القائمة . . أمام أهل الرسالة وأمام أتباع الرسول .

فإذا كان لكل مقام مقال ، فمقام المعركة المصيرية مقاله في هذه السورة الكريمة . .

وإذا نحن اتخذنا - كما اتخذ المسلمون الأوائل - من آيات القرآن

ومن أعمال النبي مبدأ وقدوة . . . فبذلك وحده ستكون نتائج الحربين واحدة .
إننى أعيش القرآن مع الأحداث . . .

إن فى سورة « الحشر » تجسيمياً لموقفنا من نفس الأعداء . . أولئك
الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود ، وهم أبغض الناس إلى الناس ،
ومع ذلك نجد من يساندهم فى أمريكا . . . حيث يعيش شعب مسيحي
مضلل يقف وراء اليهود وهو لا يدري ما يكنه له اليهود . إنهم يحلبون ذلك
الشعب ويستدلونه ويمتصون دماءه ويمزقون مجتمعه ويستحلون أمواله
ويستبدون بكل مرافق حياته ، وإذا حدث لأمريكا خراب عاجل فسيكون
على أيديهم ، ولسوف يحدث ذلك فى القريب ، وقد تنبأ به جورج واشنطن
غداة النصر فى حرب الاستقلال الأمريكى .

إن الشعب الأمريكى يبغض من أعماقه اليهود . . ولكنه ينافقهم . .
ولهذا النفاق أصل قديم . . منذ عصر النهضة والثورة الصناعية ونظام
البنوك . . وعن طريق نظام البنوك تسلمت الأفعى الصهيونية فسيطرت
على كثير من الدول .

ولم تصبح الصهيونية كما تدعى عنصراً ضعيفاً يعانى مرارة العدا
للسامية ، بل أصبحت قوة مخربة مدمرة أخطر ما فيها أنها حولت كثيراً من
الحكومات الواقعة تحت السيطرة المالية إلى أجهزة إدارية تأتمر بأمرهم
وتلتزم بحكمهم فنافقهم الشعوب إلى حين . . .

ومهما بلغت قواهم ، فإن أسحتهم لا يمكن أن تهزم قوة الحق . .
فكيف نعبى قوة الحق ؟ . . كيف يكون إيماننا بمحتمية النصر ؟ . .

ماذا يقول القرآن الكريم ؟ وماذا فعل النبي العظيم باليهود فى أول
الحشر ؟ . .

لقد أتيت لي فرص التأمل فى الموقفين ، ورأيت النصر فى
الحربين ، واسترسل الحاطر بما يحتويه هذا الكتاب ، بل هذه المحاولة

فى اختيار منهج التخطيط للمعركة المصيرية . . تطبيقاً لما أنزل الله فى محكم كتابه ، فإذا كان ثمة تكرار فى الشرح وتشابه فى الفهم بين فصول هذا الكتاب ، فإنما يأتى ذلك عن قصد منى إلى التركيز فى الوعى بجلال الرسالة وعظمة الرسول . . وقد تشابهت الآيات فى القرآن الكريم . زيادة فى التربية والتعليم . وكذلك ينبغى أن نعى دائماً بالتنبيه المستمر إلى ما يقول القرآن الكريم ، والتنبيه المستمر إلى أعمال النبي القائد ليكون الذكر الحكيم هو الطريق إلى النصر العظيم .

وذلك التخطيط محكم فى رسالتنا المحمدية ، وعلينا نحن تقع مسئولية التطبيق . . ولا بد أن تستمر الدعوة حتى تحتشد خير أمة فى أشرف معركة .

وسيجد القراء فى الصفحات التالية من خواطرى فى مولد النبي خلاصة فكرى طوال ثلاثة أعوام مضت ونحن فى المعركة لم نزل . . وما النصر إلا من عند الله .

حسين الشافعى

الفصل الأول

إلى سيدي رسول الله

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على أول الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين .
الحمد لله حمداً يتكافأ مع نعمته ، ويتسامى إلى قلس معونته ،
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . سبحانك ربّي ، بعثته بالهدى
ودين الحق ، لتظهره على الدين كله ، بعد أن اصطفتيه وأكرمته ،
وأفضت عليه وعلى أمته من آيات التقدير ، ما لم يتح لنبي قبله أو رسول ،
وما لم تتشرف به أمة غير أمته :

(وَاللّٰهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

أنعم بذكرى النبي العربي ، المبعوث إلى الناس كافة ، فإن للأمة
الإسلامية من تكريمه نصيباً ، وإن لنا في إعلاء ذكره شرفاً عزيزاً .
أنعم بذكرى مولد من قال فيه الحق تبارك وتعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) . (بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَّحِيمٌ) .

بعد ذلك كله يقرر الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

نصلي ونسلم عليك سيدى يا رسول الله . منذ بعثك الله هدى
 ورحمة ، لتذكرك فى كل صلاة أنك الأسوة الحسنة ، تجسدت فى حياتك رسالة
 الإسلام وأخلاق القرآن . جئت بالدين القيم ، ليكون ميثاق الرحمة على
 الأرض . ودليل عمل من أجل الحق والعدل نتمثل فى ذكراك ،
 وفى دوام الصلاة عليك . عبر حياتك وجهادك ، منذ مولدك إلى انتقالك ،
 فنجد فى كل خطوة . وعند كل مرحلة مثلاً أعلى للحياة الإنسانية .
 ونحن بالصلاة الدائمة عليك ، نؤكد أن حياتك يا رسول الله ، كانت
 معجزتها أنك بشر ، ونحن فى سعيينا إلى الاقتداء بك ، أو بالاقتراب
 منك ، إنما نسعى للاقتداء والاقتراب من أعلى مثل ، وقد جعله الله
 فى متناول الإيمان والعمل ، لكل مؤمن بالله وبك يا صاحب الخلق العظيم .
 سيدى يا رسول الله .

ليست كذكرى مولدك ، مناسبة نحس فيها مدى حاجتنا إليك ،
 نرسم خطاك ، ونسير على هداك ، ونتأسى بجهادك ، وما تحملت فى
 سبيل دعوتك ، من إنكار المنكرين ، وسخرية الساخرين ، ونفاق
 المنافقين ، وتعويق المعوقين ، وعداء الكافرين ، وطغيان الجبارين . . .
 ولكنك يا محمد ، كنت أكبر من هذا كله ، وأقوى من هذا كله ،
 فحملت الأمانة ، وبلغت الرسالة ، ونصحت الأمة ، ومضيت فى
 طريق الله ، حتى نصرك الله ، وتركت فىنا ما إن تمسكنا به ، فلن
 نضل بعده أبداً . كتاب الله وسنتك يا رسول الله .
 فمن غيرك يا محمد يمكن أن يكون لنا هادياً إلى الله ، ويمكن أن
 يكون لنا شافعياً عند الله ؟ . . .

إننا حينما نلجأ إلى بابك ، إنما نستوحى سيرتك ، ونستلهم جهادك ،
 ما يعين أمتك على السير فوق ما يعترضها من تحديات وإننا فى سعيينا
 إليك يا رسول الله ، إنما نتلمس فى نورك إشارة أو بشارة ، هى بالنسبة

إلينا القاعدة الوطيدة . وهي مرفأ الأمن والنجاة .
نقف الآن في رحاب ذكراك ، وكل منا يدعو الله ويتمنى أن
يراك في مجال الرؤيا . فتكون له البشرى ، ولقلبه السكينة .
لقد تصورت - وأنا أكتب - هذه الرؤيا ، وقد جئت يا رسول الله
لتشدد من أزرنا ، وتبشرنا بأنك معنا ، وأنا نحارب تحت لوائك . . إن
مجرد هذا التصور والتأمل في معناه ، يجعلنا لاتسعنا الدنيا ثقة وإيماناً
بنصر الله . لأننا كما تعلم يا إمام المجاهدين ، نؤمن بأن لا غالب إلا الله ،
ونذكر أن لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم نذكر في قلب المعارك قولك لربك
في أشد لحظات الحرج : « إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي » . .
قلت هذا يا رسول الله ، وأنت على قدرك العظيم عند ربك ،
ولم يزدك التكريم والتشريف الإلهي إلا خشية منه ، وسعيّاً إلى مرضاته ،
تخاف غضبه ، وترجو رحمته ، بعد أن فقدت الأهل والنصير ، وتنكر
لك قومك ، فلم يشغلك شاغل . ولم ترهبك قوة ، ولم تعد تبالي بشيء
سوى رضا الله عنك . . وأنت المصطفى المختار ، وأنت الرحمة المهداة .
تقبل علينا هذه الذكرى لرابع مرة بعد العدوان ، وإن جازلنا
أن نسمى هذه السنين كما عشناها ، فإن الأولى كانت سنة الامتحان ،
والثانية كانت سنة الإيمان ، والثالثة سنة البشرى ، والرابعة سنة الجهاد .
وإننا لنجد في ذكراك يا رسول الله ، فرصة نجدد فيها العهد .
ونقدم تقريراً وحساباً نتذاكر فيه ما يمكن أن نلمسه من علامات تبشر
بها الأحداث ، ويتضح فيها الأمل ، ويزيد الإيمان بوعد الله :
وبشر الصابرين . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين .
أما سنة الامتحان ، فقد شهدت لأعدائنا نصراً عسكرياً فاق كل
تقدير وكل توقع . . . كانت تلك السنة في حقيقتها بما جاءت به من
أحداث ، مؤامرة دبّرت بليل ، فاستفاد العدو من واقعنا ومن طبيعته

الغادرة .. من كل درس تعلمه .. فهو في تلك السنة لا يكرر عدوان ١٩٥٦ وكان عدواناً ثلاثياً يمكن أن يختلف فيه المعتدون .. ولكنه في ١٩٦٧ ، كان عدواناً منفرداً في الظاهر ... كان العدوان في عام ١٩٥٦ من وراء ظهر الولايات المتحدة ، ولكنه في عام ١٩٦٧ كان بتنسيق معها .. كانت هي المخطط والمدير ، وكانت الممول والمبارك ، بل كانت القاتل والمحرض .. لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ كينيدي الذي يدعون فيه أنهم إلى جانب الحق ، وأنهم يريدون ضمان حدود دول المنطقة ، ولكن عندما تكون النتائج في جانب إسرائيل ، فسكوت ورضا يفضح التآمر ، ويكشف أبعاد العدوان ، وأن أمريكا هي المحرض وهي القاتل .
 حينما تسير الأمور عكس ما يشتهون ، وتكون النتائج في غير مصلحة إسرائيل ، تنقلب المساعدات إلى تدخل صريح ، وتصبح المساندة علنية ومفتوحة ، وكأن أمريكا لا يكفيا ما تلقاه في كيبوديا ولاوس وفيتنام .

وفي سنة الامتحان ، اهتزت الأمة العربية من أعماقها ، وغلت فيها دماء العزة .. اهتزت الأمة وتزلزلت ، ولكنها لم تستسلم ولم ترقع لغير الله .. نفضت عنها كل المعوقات ، وانطلقت منها كل الطاقات ، وانبعث بروحها الأصيلة ، تكشف ذاتها ، وتبحث عن مصادر قوتها ، وتتلمس عناصر وجودها ، فإذا هي - وعلى غير ما ينتظر الأعداء - تلتف حول القائد ، وترفض الهزيمة ، وتؤكد الوحدة الوطنية ، وتصر على مواصلة النضال ، على طريق العزة ، وعلى طريق التحرير ، وعلى طريق النصر .
 فحمداً لك يارب ، لقد صدق وعدك .. ونصرت عبدك .. وكان صمودنا في هذا الامتحان من حيث لم يحتسب العدو ، وأنزلت السكينة على قلوبنا برغم شدة البلاء وقسوة الامتحان .

أما السنة الثانية ، فكانت سنة الإيمان ، بعد أن تأكد الصبر على

الامتحان . . كان ما تحقق في العام الثاني من أهداف كبيرة ، ومهام ضخمة ، أساسه إيمان لا يتزعزع بالله ورسوله ، وإيمان بالشعب وصلابته . . إيمان يدفع صاحبه إلى البذل والجهاد بالمال والنفس . . كان عام الصدق . . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون .

في ذلك العام الثاني ، أعيد بناء القوات المسلحة ، واستكملت قدرتها على الدفاع ، وتأكد الصمود عسكرياً ، والصمود اقتصادياً ، بالدعم العربي ، وبما قدم الشعب من مرتبات أفرادهِ وتبرعاتهم . . وبما تقدمت به الدول الصديقة من معونات اقتصادية ومعونات عسكرية . . وبما أفاء الله علينا من محاصيل زراعية وافرة ، عوضتنا وساعدت على دعم اقتصادنا . . وكذلك الأمر في مجال الصناعة ، بدأت مشروعات خطة ٦٠ - ٦٥ تحقق العائد ملموساً ومباركاً . وكذلك مشروعات الخطة الثانية ، وجرى تنفيذها بما يعود على الوطن بالاكتماء الذاتي ، والاستغناء عن كثير من الاستيراد . .

وقد بدأ بحمد الله سدننا العالي في أسوان ، يعطى ما أنفق في بنائه ، خيراً وبركة ، من ماء وكهرباء ، وتوفير طاقات هائلة للتصنيع ، إنارة القرى التي عاشت في ظلام طويل قسر له أن ينتهي .

في تلك السنة الثانية ، سنة الإيمان والصدق ، على رغم تكاليف المعركة والتزاماتها وصلت ميزانية الدفاع إلى ٥٥٠ مليون جنيه ، وكانت لاتزيد على ١٦٠ مليون جنيه قبل سنة ١٩٦٧ . . برغم ذلك كله ، لدينا فائض قد يزيد على ٣٠٠ مليون جنيه ، مكنتنا من الاستمرار في التنمية لعام ٧٠/٧١ ، والاستمرار في البناء ، برغم ظروف العدوان وتكاليف الحرب ، لم يتمكن أعداؤنا بحمد الله من القضاء على تجربتنا ، وهي تمثل الأمل والنموذج ، بما حققته وتحققه من أعمال ثورية ضخمة .

فمن كان يتصور أننا نبني مجمع الحديد والصلب بتكاليف تقرب من تكاليف السد العالي . . ونحن في قلب المعركة ؟ . .
 نعلن ذلك في ذكرى مولدك يا رسول الله ، عملاً بما أنزل عليك :
 (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . .

فإن المعركة كل لا يتجزأ . . لا بد من الصمود الاقتصادي بقدر الصمود العسكري . . مع التحرك السياسي الواعي ، في كل اتجاه ، يصبح الصورة التي استغلها إسرائيل نتيجة انتصارها العسكري . . ولكن شيئاً فشيئاً أخذت إسرائيل تفقد أرضها في مجال الإعلام والرأي العام العالمي ، وبدأت تدرك أن الزمن ليس في مصلحتها ، وأن الأيام تلخر لها ما هو أقسى عليها من انسحابها . . فقد بلغ الأمر بمفكرها حد التنبيه إلى مغبة الأوضاع التي تعيشها إسرائيل تحت ضغط المؤسسة العسكرية . . ومن بين الكتب التي صدرت أخيراً ، كتاب لأحد زعمائها ، يحدد فيه أغراض إسرائيل في ثلاثة :

- ١ — إقامة الدولة الصهيونية . . وهذا تم .
- ٢ — استقطاب يهود العالم ليعيشوا في إسرائيل . . وهذا لم يتم .
- ٣ — الانفتاح على العالم العربي والسيطرة الاقتصادية الكاملة عليه . . وهذا لم يتم .

ويضيف كاتبهم إلى ذلك قوله :
 « وبعد أن تستدرج إسرائيل في حرب الاستنزاف التي دعا لها جمال عبد الناصر ، فلن تتمكن إسرائيل من تحقيق هدفها الثاني أو هدفها الثالث ، وهما الأساس لقيام الدولة » .

وينتهي الكاتب الصهيوني من ذلك إلى قوله :
 « إن من الأوفق لإسرائيل أن تقبل حتى بحدود تقسيم ١٩٤٨ ،

لكي تتاح لها الفرصة في إقامة مجتمع يؤمن بالتعاليم اليهودية ، قبل أن يضيع في بحر من المناطق التي يسكنها العرب .

حمداً لك يا رب ، فهذا شاهد من أهلها ، يكشف لنا حقيقة أعدائنا ، ونتائج صمودنا وصبرنا وإيماننا بأنك القاهر فوق عبادك .
سيدى يا رسول الله .

إني إذ أكتب هذا في ذكرى مولدك ، أشعر أن نبجواك ألهمتنا حقائق المعركة التي نخوضها أمتك ، وهي التي كانت وحيّاً لي عند كتابة الفصل التالى عن « معادلة النصر » . . . عن قوانين ومعادلات الإيمان والعمل في القرآن الكريم ، وتناولت فيه آيات جهادك ونصرتك ، والدروس المستفادة من غزواتك ، لنقتدى بها في معركتنا ، ونجد فيها نوراً يضيء طريقنا ، وأنت ترى وتسمع يا رسول الله ، أننا نخوضها . . معارك من أجل السلام ، وليست بهدف التوسع بالعدوان والعنف والإرهاب . . نخوضها معارك ليست فقط للدفاع عن الحياة ، فما أرخصها عندما تكون التضحية في سبيل حماية العقيدة ، وتحقيق رسالة الرحمة! . .
وكانت السنة الثالثة يا رسول الله هي سنة البشريات . . سنة تقرب فيها من موعد النصر بإذن الله .

وهذه هي السنة الرابعة ، سنة الجهاد، (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ

جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ . .)

سيدى يابى الرحمة والملاحمة . . أستمعك عذراً إذا تمثلت هنا بقول خليفتك البطل عمر بن الخطاب ، عندما وقف يخاطب جند الله فقال : « إن عدوكم يفوقكم عدداً وعدة ، ولا تمتازون عليه إلا بإيمانكم ، فحافظوا على صلواتكم ، إن تركها أخوف عليكم من عدوكم » .
هذا هو منطق خليفتك يا رسول الله ، تعلم على يدك ، وأخذ

عنك ، وعرف أنه بعد أن أعد واستعد ، بكل ما يستطيع ، أن الأمر قبل كل شيء معلق بالإيمان بالله ، ومعلق بالصلة بالله ، وعرف معنى المعادلة القرآنية (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) ، وكان مؤمناً بما أنزل على قلبك يا رسول الله : (أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) .

نعود إلى عام البشريات . . وما أحب الحديث عن البشري في مولد النور !

حينما بدأت أعد هذا الكتاب أو ذلك الحساب ، وقعت في يدى مقالة لكاتب من أنصار الأعداء ، أتيح له أن ينقد فكره من سجن الإعلام والتضليل الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ، فرأى جانب الحق في القضية ، وأعلن رأيه قائلاً :

« من المؤسف حقاً أن معظم الأمريكيين يعتقدون أن العرب قوم متواكلون ، وأن الإسلام يعلمهم الاستسلام ، وبالتالي فإن العرب مستعدون لقبول مشيئة الله نصراً كانت أم هزيمة ، في حربهم مع إسرائيل » .

هذه هي الحقيقة التي كتبها الصحفي الأمريكي ستيفن بيلتير ، بعد مجيئه إلى القاهرة ، وبعد استماعه إلى خطاب المغفور له الرئيس القائد جمال عبد الناصر في عيد أول مايو ١٩٧٠ ، وهو يعلن باسم الأمة العربية ، حقائق موجهة إلى الشعب الأمريكي ، ثم إلى الرئيس الأمريكي ، لعل الله يهديه إلى قرار يحسم الصراع في الشرق الأوسط ، أو يتحمل تبعه ما يحدث في هذه المنطقة ، وقد تبدأ منها الحرب العالمية الثالثة ، إن لم تتسحب إسرائيل دون قيد أو شرط .

والسؤال الآن : كيف يفهم الشعب الأمريكي أن الإسلام يعلمنا

الاستسلام ، وأن العرب مستعدون لقبول مشيئة الله نصراً كانت أم هزيمة ، في حربهم مع إسرائيل .

إن الأعوام التي مضت ، ونحن نحتفل سنوياً بمولدك يا رسول الله ، قد سجلت أحداثاً تؤكد أن الأمة العربية — كما يعلن قادتها دائماً — ترفض الاستسلام ، ورفض الاستسلام معناه الاستعداد للقتال ، والاستعداد للتضحيات ، مهما بلغت التضحيات . . وأن الأمة العربية تريد السلام الحقيقي ، ولكنها تعتقد أن السلام يجب أن يبنى على العدل ، وأن تصميمنا على تحرير أرضنا هو أول حق لأي أمة تعرف أن لكرامتها قيمة . وكرامة الأمة من كرامة رسالتها . رسالة الرحمة وهي أعلى مراتب القوة . قوة السلام القائم على العدل .

نعود إلى البشريات المرفوعة إليك يا رسول الله في ذكرى مولدك . . إنها تعني أن أمتك على طريقك ، تصبر عند البلاء ، وتثبت عند اللقاء . . وقد قامت ثورة السودان في الخامس والعشرين من مايو الأسبق تجسماً لهذه الحقيقة .

قامت في السودان ثورة مؤمنة واعية ، تؤكد للدنيا جميعاً أنها ثورة عربية حرة ، وأنها ثورة اشتراكية ديمقراطية ، وأنها ثورة وحدوية ، وأنها تحشد قوى السودان على جبهات المقاومة لأعداء الأمة العربية .

أيعني ذلك أن العرب قوم متواكلون ؟ . . أيعني ذلك أن الإسلام يعلم العرب الاستسلام ؟ . .

لقد أتى الله أعداءك يا محمد وأعداءنا ، من حيث لم يحتسبوا ، عندما قالت ثورة الخرطوم : إني مع المقاتلين في خط النار .

وكانت البشري الثانية ضربة أخرى في صدور الأعداء . . قامت الثورة المعجزة في ليبيا ، من أرض القواعد الإنجليزية والأمريكية ، التي ضربت منها مصر ، وضرب منها العرب ، في عدواني ٥٦ ، ٦٧ . .

جاءت ثورة الناتج من سبتمبر ٦٩ . وهي ترفع شعار « فلسطين لنا » ، وكانت كلمة السر ليلة الثورة هي « القدس » . . في الليلة العاشرة بعد إحراق إسرائيل المسجد الأقصى . . وقد حسب الأعداء أنهم يوجهون بذلك أقصى أنواع التحدى لمشاعر العرب والمسلمين جميعاً ، فجاءت ثورة ليبيا رد فعل مباشراً لهذا التحدى ، جاءت لتقول للمحتلين الموالين لأعداء العرب ، ليس لكم مكان في أرض العرب .

وقالت ثورة ليبيا لثورة السودان : يا جند الله ، موعدنا في مصر ، لنبنى معاً قواعد الحرية والاشتراكية والوحدة ، على هدى من الله وبصيرة .
 أيمن أن يكون ذلك استسلاماً لإسرائيل التي أحرقت المسجد الأقصى ؟ . . أو استسلاماً لأعداء إسرائيل الذين يمدونها بأسلحة الهدم والحريق والحرب ؟

أستمحك يا رسول الله أن تأذن لي بنظرة إلى حال هذا العدو المغرور بنصره ، المغرور بقوته . . كيف حاله اليوم بعد مضي ثلاثة أعوام على انتصاره المزعوم ؟ . .

يجيب عن ذلك شاهد من أهلها . . جولد مان رئيس المؤتمر الصهيوني بقوله :
 « إن الزمن ليس في مصلحة إسرائيل . بل إنه يعمل ضدها . إن إسرائيل تسير في طريق خطر . إن الساعات الناصلة تقترب . من الضروري أن يعرف الشعب في إسرائيل أبعاد الحقيقة فيما يحيط به ومن أبعاد الحقيقة التي يريدونها جولد مان ، ما كشفت عنه رئيسهم جولدا مائير ، في احتفال إسرائيل بالذكرى الثانية والعشرين على قيامها ، عندما قالت :

« إن الحزن والكآبة يخيمان على إسرائيل اليوم . . . إن فرحتنا لم تتم . . إن إسرائيل لم تتمتع بيوم واحد من أيام السلام ، خلال السنوات التي أعقبت حرب يونيو ١٩٦٧ ، لقد كسبنا الحرب في ستة أيام ،

ولكن السلام لم يتحقق بالنسبة لنا. وفوق ذلك يتضاعف عدد قتلاتنا في كل يوم» .

ويضيف قائدهم موسى ديان إلى الصورة إيضاحاً ، فيعلن في أحد تصريحاته الأخيرة : « أن القوات المصرية المسلحة قد أخذت زمام المبادرة ، وارتفعت نسبة قتلاتنا على جبهة القناة ، إلى حد يضعنا في مواجهة الخطر . . إن هذا الموقف يدعونا إلى أن نقرر فوراً : هل نحارب ، أولاً نحارب . . إذا لم نحارب فلن يفكر أحد في عوننا . ولكننا عندما نحارب سنجد من يساعدنا . . »

ويضيف مندوب اتحاد الصحافة الأمريكية إلى هذه الحقيقة اعترافاً يقول فيه :

«إن مصر قفزت الآن إلى وضع يتيح لها أن تتحدى التفوق الحربي الإسرائيلي على جبهة قناة السويس بصورة لم تحدث منذ حرب يونيو ١٩٦٧» .

ولست أدري كيف يتفق هذا المنطق ، والشعب الأمريكي يفهم من خلال الإعلام الصهيوني أن العرب قوم متواكلون ، وأن الإسلام يعلمنا الاستسلام ؟

يجيب عن ذلك سكان مستعمرات الجليل من الإسرائيليين ، وهم يهاجرون منها إلى أي ملجأ يستطيعون الاعتصام به ، من ضربات الثورة الفلسطينية التي توحدت منظماتها . . وبلغت إسرائيل إلى استدعاء الاحتياطي من قواتها للعمل في جبهة القناة ، ولكنها دفعت به إلى منطقة أريحا ، وإلى جنوبي لبنان . . وفي أريحا كانت في انتظارهم عملية بحر البقر التي قامت بها « العاصفة » من جنود « فتح » . . انتقاماً للغارة الإسرائيلية الأمريكية على مدرسة للأطفال في بحر البقر ، وكانت خسائر العدو في هذه العملية التي تمت ظهر الجمعة ٩ مايو عام ١٩٧٠

فوق ما كانوا يتصورون .

وأعلن ممثل منظمة فتح حينذاك ، أن المقاتلين الفلسطينيين أقدر ما يكونون على نفس مدرسة لأطفال العدو ، ولكنهم رفضوا هذا النوع من الانتقام ، وحرصوا على أن تكون ضرباتهم موجهة إلى الجيش الذي لا يقهر ، وليس للأطفال الصغار ، لكي يعلموا الفرق بيننا وبينهم ! وأنذرت منظمة فتح إسرائيل من تكرار العدوان على المدنيين العرب في أي مكان ، ولكن إسرائيل ركبت رأسها كعادتها ، وهاجمت جنوبي لبنان ، فتجسدت أمام العالم حقيقة تؤكد ما أعلنه قادة الأعداء وهو : أن إسرائيل الآن في مواجهة الخطر .

ونتحدث بنعمة الله علينا في معركتك يا رسول الله ، بما لقيه اللواء الإسرائيلي المدرع ، من نيران الثورة الفلسطينية ، المؤيدة بالطيران السوري ، وعرفت وحدة النضال الفلسطيني طريقها إلى العودة - لكي تقيم دولة فلسطين الديمقراطية - دولة تتعايش فيها كل الأديان ، وليست مباءة للعدوان ، يهرب منها حتى اليهود ، ليستطيعوا أداء طقوسهم الدينية ، أما كيف يحدث هذا ، فالجواب ينطق به شاهد من أهلها أيضاً .. الحاخام « عمرام بلوى » ، وهو يتزعم ، باسم عدد من الحاخامات ، الدعوة إلى الهجرة اليهودية من إسرائيل ، إلى أي أرض فيها سلام ، حيث يستطيعون أداء طقوسهم الدينية . وهو يجهر بقوله : « لقد حول الصهاينة إسرائيل إلى دولة للفسق والفجور والفساد ، وإنهم باستيلائهم على كافة المصادر الاقتصادية والإعلام ، يستطيعون دفع شعب إسرائيل إلى الكفر والخطيئة ، مع التعرض لحرب دائمة مع العرب . وباليتم اكتفوا بذلك ، بل زادوا الموقف تدهوراً حينما أعلنوا أنهم مستعدون لمحاربة الاتحاد السوفيتي حتى آخر إسرائيل ، من أجل جلب اليهود السوفييت إلى السجن المسمى إسرائيل ومن أجل منع الاتحاد السوفيتي من التأييد

الكامل للعرب » .

نشرت هذا صحيفة معاريف الإسرائيلية ، وإلى جواره أنباء مستعمرات الجليل ، وموشى ديان يصيح في سكانها اليهود ألا يهاجروا من مساكنهم ، وهم لا يكثرثون بما يقول ، ويعلم حكام هذه المستعمرات الأسف لأنهم لم يستطيعوا الاحتفال بذكرى قيام إسرائيل ، لأن الناس كانوا يشيعون جنازات القتلى على امتداد يوم الاحتفال !

وهكذا تغيرت فجأة لهجة التفاخر المتغطرس بجيش إسرائيل الذي لا يقهر . . لتبدأ نغمة حزينة باكية شاكية ، من الجراح العميقة التي سببتها عمليات جبهة القناة ، ولم تحسب أنها ستلاقي مثل ذلك على الجبهات الأخرى .

ويرى المعلقون جانباً آخر من الصورة ، عندما يرجعون أن هجمات العاصفة على مستعمرات الجليل ، كانت السبب الظاهر للغارة الإسرائيلية الفاشلة على جنوبي لبنان ، وكان السبب الخفي ، هو نجاح الندوة المسيحية العالمية التي عقدت في بيروت ، عندما قررت هذه الندوة بالإجماع عدم شرعية دولة إسرائيل ، ووصفها بأنها دولة قامت على أساس الأمر الواقع ، وانتهاك الحقوق الدولية في الخارج ، وانتهاك حقوق الإنسان في الداخل ، وأعلنت الندوة أن حكومة إسرائيل قائمة على أيديولوجية سياسية عنصرية توسعية بالعدوان . إن الوجدان المسيحي لا يمكن أن يقبل مثل هذا الظلم والإرهاب وهضم الحق الإنساني . وقررت الندوة المسيحية العالمية من أجل فلسطين . إنشاء لجان وطنية مسيحية في كل بلاد العالم ، لشرح قضية فلسطين العربية ، وعقد مؤتمر مسيحي دولي من أجل فلسطين المقدسة في كل الأديان .

ويرتفع صراخ إسرائيل بلسان رئيسها « جولدا مائير » في تصريحها البقائل : « إذا لم تهب أمريكا لمساعدة إسرائيل ، فسيذكر لها التاريخ

أنها كانت صاحبة الفضل الأول في القضاء على إسرائيل .
ولكن صرخاً أعلى من صراخ إسرائيل قد تردد في آذان أمريكا . .
ثورة الغضب التي اجتاحت الجامعات الأمريكية ، ضد الحرب في
كمبوديا ، وضد تصاعد الحرب في فيتنام . . لقد أضرب الشباب
عن التعليم وزحف إلى البيت الأبيض من أنحاء الولايات المتحدة ،
واستنجد الرئيس نيكسون بحكام الولايات الخمسين ، وتحرك الجيش
الأمريكي لمواجهة مظاهرات الطلبة ، وسقط منهم فيما نعلم ثمانية قتلى ،
فأعلن الشباب الأمريكي مواصلة الإضراب ، ودعوة العمال في المصانع
والمتاجر إلى شل الاقتصاد الأمريكي ، بمقاطعة الشركات التي
تخدم المذبحة التي أنشأتها الحكومة للشباب الأمريكي في الهند الصينية ،
ويستقيل الوزير المسئول عن الاتصال بالجامعات ، ويبلغ وزير الداخلية
الأمريكية الرئيس نيكسون أن الحكومة تساهم في نشر حالة من الفوضى
في البلاد ، بتجاهلها مشاعر الشباب الأمريكي الذي تسوده موجة
من خيبة الأمل . . وتنتقل غضبة الشباب من أمريكا إلى إنجلترا وإلى
فرنسا ، وإلى السويد ، وإلى ألمانيا الغربية ، وإلى أستراليا ، وإلى كل
البلاد المتحالفة مع أمريكا ، والتي يحس شبابها بنفس إحساس الشباب
الأمريكي ، ضد الحرب في كمبوديا ، وفي فيتنام ، وفي الشرق الأوسط .
وفي وسط هذه الأعاصير التي تزلزل الكيان الأمريكي بسبب سياسة
حكومته العدوانية ، كشف قائد أمتنا العربية أمام الشعب الأمريكي
حقائق كان يجهلها عن الصراع العربي الإسرائيلي ، وجه الرئيس الراحل
النداء الأخير للسلام إلى الرئيس الأمريكي ، أن يأمر إسرائيل بالانسحاب ،
أو يكف عن الدعم العسكري للعدوان على الأمة العربية ، أو يكون
من حق هذه الأمة أن تتخذ الموقف الملائم ضد العدوان وضد من يساندون
العدوان .

سيدى يا رسول الله .

إننا يجب أن نحاسب أنفسنا أمامك ، فى ذكرى مولدك ، عما قمنا به من واجب يقابل حق الانتساب إليك .

فإذا تجلت نعمة الله علينا بالتفوق العسكرى الذى يتحدى قوة أعدائنا ، وباتحاد منظمات الثورة الفلسطينية ، وبصلابة جبهاتنا ، وبقيام الثورة فى السودان ، وقيام الثورة فى ليبيا ، وبالإصرار والتصميم على تحرير أرضنا شبراً شبراً ، فقد زاد الله فى عطائنا ، بما آلت إليه أحوال أعدائنا ، وفتحت أبواب النصر أمامنا ، وتضاعف عون أصدقائنا لنا من أجل تحرير الأرض ومن أجل السلام .

أما المساعدات الأمريكية لإسرائيل فهى على حد تعبير صحفى أمريكى حر : تفيد العرب بطريقة غير مباشرة ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تمر بصعوبات اقتصادية شديدة ، وهناك أعداد متزايدة من الأمريكيين يطردون من أعمالهم ، ويتعرضون للبطالة ، ولا يسعدهم أبداً أن تتدفق ملايين الدولارات على إسرائيل ، فى حين تحفى أقدامهم للحصول على لقمة العيش .

سيدى يا رسول الله .

إننا لآنحصى ثناء على الله ، فنحن على الطريق إلى نصر الله ، وهو يتمثل فى اقتدائنا بك ، فلا نخوض الحرب من أجل الحرب ، ولكن حفاظاً على المبادئ والقيم ، ومن خلال العمل وفق ما أنزل إليك ، دفاعاً عن النفس وعن الأرض وعن رسالة أمتنا . . والصهيونية تحاربنا لتثبيت ما اغتصبت من أرضنا . . وسبيلنا هو سبيلك يا رسول الله فى معركة المصير .

إننا لانتعجل النتائج . ولكننا نؤدى الواجب نحو النفس ، والعقيدة ، وحق الحياة ، ملتزمين فى ذلك بالصبر والصلاة - صبر على الجهاد حتى النصر ، وصلاة تلتقى فيها الصلة بالله وأتباع رسول الله . . صلاة نستمد منها الأمل

والرجاء ، في أزمة وصفها قائد هذه الأمة الراحل بأنها أزمة لم تواجه أمة في عصرنا الحديث ، وأنها أزمة الضمير الإنساني كله . هذا الضمير الغافل عنه أننا أمة ذات رسالة إنسانية ، وهذه الرسالة تفرض علينا أن نقتدى برسولنا ، وأن ننظر في قرآننا ، فنجد دليل العمل في معركة المصير ملخصاً في خمس نقاط :

الأولى في الإيمان بنصر الله . . وعلى هؤلاء الأعداء بالذات ، تأكيداً وتجديداً لما حدث في صدر الرسالة ، عندما أبلغك الأمين جبريل ، قول الله تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) .

والتاريخ يعيد نفسه الآن ، ليخرجوا من الأرض التي اغتصبوها وأقاموا عليها دولة الأمر الواقع ، بالتآمر الدولي ، وبالعنف الإرهابي .

فقد أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا : احتلوا فلسطين كلها ، فحولوا شعب اللاجئين إلى فرق للفدائيين ، تعرف طريقها إلى الموت العزيز في سبيل العودة ، وليس الموت في سبيل حفة دقيق من وكالة الغوث . . وبعد عشرين عاماً من النكبة ، ينشق بطن الأرض عن قوة عارمة ، في الشعب الفلسطيني الثائر ، وقد حسب أعداؤنا أنهم حكموا على هذا الشعب بالفناء ، فإذا هو يسقيهم اليوم الكأس التي ملأوها له .

إننا في عيد ميلادك يا رسول الله ، نسأل الذي أنفسنا بيده ، أن يزيد الثورة الفلسطينية إيماناً وعزماً ونصراً من عندك أنت يا ناصر المظلوم . . ونحمدك يارب بقدر عظمة ذاتك ، على أن قواتنا المسلحة قد أخذت

بزماء المبادأة في جبهة القناة ، وتجسست فيهم إرادة الله ، تأتي أعداءنا من حيث لم يحتسبوا.

وقذف في قلوبهم الرعب ، وأسألوا القوات العابرة للقناة ، وأسألوا القوات المتمركزة في القناة ، وأسألوا قاذفاتنا الجوية ، وأسألوا قواتنا البحرية ، ماذا صنعت قبل وقف إطلاق النيران بذلك الجيش الذي لا يقهر ، كما تقول دعاياتهم ، والحقيقة أن هذا الجيش قد تعود الهرب من المعارك ، والفرار من نار سيناء ، لينضم الجنود إلى الشباب الإسرائيلي الهاتف بالنداء : لانريد الحرب . . . لانريد الموت في جبهة سيناء.

صلوات الله وسلامه عليك يا من قلت في حديثك الشريف : « إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً فإنهم خير أجناد الأرض » .
لأنهم يؤكدون الآن عملياً صدق هذا الحديث ، ويوم تسجل البطولات المصرية في هذه المعركة الضارية ، ستقوم الأدلة القاطعة على أنهم حقاً خير أجناد الأرض . . إليهم في عيدك يا رسول الله نتجه بقلوبنا ، فنجدك هناك يداً لله تأتي أعداءه وأعداءنا من حيث لم يحتسبوا ، فلم تغنهم أسطورة التكنولوجيا ، ولا طائرات الفانتوم ، ولا القوات المرتزقة ، ولا الحصون المنيعية ، لأن صيحة « الله أكبر » من جند مصر تقلد في قلوبهم ، ونحن نذكر كيف مات منهم جنود بالسكة القلبية أمام تكبيرة الفدائيين ، فنذكر يا رسول الله معنى حديثك : « لقد نصرت بالرعب علي مسيرة شهر » .

النقطة الثانية : تبدو أمامنا في الرؤية الواضحة أن الذين يساندون الصهيونية يكرهونها في أعماقهم ، ولكنه نفاق محترق بالحكم والاستغلال ، وزلق الحالمين باستبعاد البشرية بذهب صهيون . . إن رسالتنا تفرض علينا مواجهتهم في كل مكان من الأرض . . ونحن على يقين من أنهم أسرع الناس إلى التخلي عن هذا النفاق ، مصداقاً لما أنزل عليك يا رسول الله :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ! لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ) .

ذلكم هو أصدق تعبير عن سياسة أمريكا اليوم في مساندة إسرائيل . . إن الشعب الأمريكي اليوم قد بدأ يدرك أن تفاق حكومته للصهيونية قد أفقده الاحترام أمام كل شعب وكل إنسان . . وتفقد أمريكا في نفس الوقت أغلى ما يمكن أن يحققه التقدم الحضارى وهو محبة الشعوب وصداقة الإنسان للإنسان . . إن أمريكا تزرع لنفسها أشواك الحقد والكراهية في كل مكان . . بسبب ارتباطها بعجلة صهيون وعندما نستطيع بالإعلام المخطط المتقدم أن نصل بالحقيقة إلى المجتمع الأمريكى ، فلن يخرج فرد منه مع إسرائيل ، ولن يقاتل معها أحد ، لأن الحاربين من الميدان لن يعاونهم أحد ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً .

النقطة الثالثة : هي متطلبات المعركة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) .

ونشهدك يا رسول الله على أننا قد أعددنا كل ما نستطيع من قوة ،
وأنها قوة نرهب بها أعداء الله وأعداءك ، فليست العبرة في الحرب
المشروعة بما يراق فيها من دماء ، ولكن العبرة بما تقذف به القوة من رعب
في نفوس الأعداء . . . هذه هي عدتنا ، وهذا هو سلاحنا ، لأننا
لأنخوض الحرب عدواناً ، ولكنها تفرض علينا فرضاً ، ثم نخوضها دفاعاً عن
الأرض والمبدأ والعقيدة . .

لذلك أتى الله أعداءنا من حيث لم يحتسبوا . .

جمع من حولنا الأمة العربية جميعاً ، لتدرك الخطر الداهم عليها
وعلى البشرية ، فتقوم إلى أداء واجبها ، بقدر ماتتحمل أو تطيق
حسب الخطوط الأمامية في جبهات القتال ، أن تستشعر هذه المساندة ،
ليس فقط بالرأى والتأييد ، ولكن بالدعم الاقتصادي والعسكري ،
وتتحد كلمة الأمة الواحدة على تحرير فلسطين ، بعد أن تفرقت يوم
احتلال فلسطين . . .

أبدأ لن تذلل هذه الأمة أو تهون ، وهي تحمل في المعركة شعار
القائد الراحل: « إما أن تكون هذه الأمة أولاً تكون » .

وكذلك أتى الله أعداء هذه الأمة من حيث لم يحتسبوا في مجال
إعدادنا للقوة ، فإذا بأنصار حقوق الإنسان وحرية الشعوب في الاتحاد
السوفييتي والجبهة الاشتراكية ، يقدمون للعرب أوفر وأحدث السلاح ،
لاستخدامه في سبيل الحق المشروع . . حق تحرير الأرض . . وحق
الدفاع عن النفس والأرض والمبدأ والعقيدة .

إن إيمان هذه الشعوب بكرامة الإنسان ، يانبي الإنسانية ، كان
يجوارنا في المعركة ، قوة أفزعت أعداء الله وأعداء الإنسانية . ومن عجب
أن تنطلق أصوات من بطن الحكومة الأمريكية ، لتملأ الدنيا ضجة
وعويلا حول الدعم السوفييتي للعرب ، ولاتذكر الحكومة الأمريكية وهي



تتحدث بلسان إسرائيل أن الدعم السوفيتي . ليس من أجل الحرب ، بل من أجل السلام ، وليس من أجل العرب فقط ، بل من أجل مواجهة الخطر الصهيوني على الشعوب الاشتراكية ، وعلى حرية كل إنسان .

إن ذلك موقف لا يمكن أن ينساه العرب ، فالوفاء في أخلاق العرب جوهر أصيل ، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تتخذ من أرضنا قواعد للعدوان على أصدقاء ساعدونا على محو قواعد العدوان . فليس من الإسلام أن نجحد فضل العاملين من أجل السلام .

النقطة الرابعة في دليل عملنا ضد الخطر الصهيوني هي : تعريف الشعوب المخدوعة في إسرائيل بأي مجتمع يساندون .. مجتمع مملوء بالمناقضات يمزقه طول سنوات الحصار في الدائرة العربية ، وتفرقه في داخله طبقات يهدم بعضها بعضاً .. بأسهم بينهم شديد .. نظامهم سادة وعبيد .. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ..

أما أنتم يا جند الله في المعركة ، فأنتم أمام أعداء لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر .. . إنهم أجبن من لقائكم في معارك المواجهة على الأرض المكشوفة .. ولأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، وآية ذلك حوادث الفرار التي يحققها أطباء إسرائيل النفسيون في جبهة سيناء ، وهم لا يدركون أنها طبيعة الأشياء ، عندما يرى جنود العدو أنفسهم في قبضة خير أجناد الأرض ، تؤيدهم أمة قضى الله أن تكون أمة واحدة ، ولن تستطيع قوة أن تفرض فيها غير حكم الله ، وهو القاهر فوق عباده .

النقطة الخامسة : أن هذه الأمة التي تحمل أعباء الدفاع عن السلام القائم على العدل ، تعرف طريقها أولاً إلى الدفاع عن وجودها ، والدفاع عن رسالتها . فلا بد للقوة من عقيدة تدفعها ولا بد للعقيدة من قوة تحميها .

إننا لنؤمن إيماناً راسخاً بأن إسرائيل وعدوانها المتواصل علينا .
يرسل النابالم من الفانتوم الأمريكية على المدن والقرى والمصانع والمدارس
والمستشفيات والمساجد، والكنائس ، كل ذلك في ميزان الحق ليس شراً
كله ، فهو من ناحية أهم وأعظم ، أكبر دفع لهذه الأمة إلى النظر
في رسالتها ، فتجد القتال ركناً من أركان العقيدة : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِتَالُ) وتجد النصر حقاً للمؤمنين على الله ، وتجدك يا رسول الله
نورها وهداها إلى قوله تعالى : (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ
اللَّهِ . .) لأنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، فيما تأتي به الأحداث
من بشرىات .

سيدى يا رسول الله :

إن كل مسلم وكل مؤمن يذوق اليوم طعم السعادة والأمل في نصر الله ،
عندما تمتد البصيرة إلى الاحتفال بمولدك سيدى عبر القارات والمحيطات
. . . وإننى لأجد لها فرصة سانحة ، لكى أرفع في هذه الكلمات ، إلى
إلى كل مسلم في العالم ، تهنئة من الجمهورية العربية المتحدة ، تهنئة شعبها
وقادته ، بذكرى مولد النبي العربى المبعوث إلى الناس كافة . . داعياً الله
أن يقبل موعد الذكرى القادمة ، على مولد رسول الرحمة ، ويكون موعدنا
مع النصر بإذن الله .

الفصل الثانى

مَعَادِلَةُ النُّصْرِ

الحمد لله الذى وفقنا للصمود ، معتصمين بحبل الله ، فهو الأمل وهو الرجاء ، لا ملجأ منه إلا إليه . . سبحانه يخاطبنا بقوله :

(وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) :

قانون إلهى ، فى تعبير الحكيم الخبير عن مقومات الصمود ، أعلى ما يكون الصمود . . بالصبر على الشدائد . . والصبر على تحمل المكاره . . والصبر على الحرمان . . والصبر على الجهاد ضد النفس . . والصبر على تبجح الأعداء . . والصبر على اليائسين . . والصبر على دعاة الهزيمة . . والصبر على أوهام الضعفاء .

ألا إن الصبر نصف الإيمان ، ثم تكمله الصلاة . . والصلاة صلة بالله . . واهب الحياة . . واهب النصر . . الصلاة ضمان للأمل . . الصلاة وثيقة الرجاء .

إننا قد نصبر . . فإذا لم يكن صبرنا مقترناً بالصلاة . . فهو صبر على المذلة . . صبر على الهوان .

الصلاة والصبر معاً ، ركيزة العزة بأسمى معانيها . . العزة التى لا تخضع إلا لله ، والعزة المستمدة من عزته سبحانه ، وبأمر من عنده :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

أصلى وأسلم وأبارك عليك سيدى صاحب هذا اليوم ، نبينا العربى
المرسل رحمة للعالمين ، بعثه الله ليكمل به الدين . . وليتم به النعمة :
(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) .

رسالة كاملة ، أبلغها الأمين ، فى جيل كامل من الزمان . .
وأمانة عقلية ، أداها محمد لكل إنسان ، ما بقى على هذه الأرض حياة . .
ليستطيع من يأتى بعده ، أن يحمل أمانته ، ويتأسى بسيرته ، ويسير
على منهاجه . . وإذا قلت الرسالة الكاملة ، والأمانة العقلية ، فإنما أعنى
أن القرآن هو الرسالة ، والقرآن هو الأمانة . . بغير خوارق ولا معجزات
مادية . . بل كان منطق الحكيم العليم القاهر فوق عباده . . أنزله بالحق . .
آيات بينات ، فى قوانين ومعادلات .

ونحن فى منطق العصر ، قد يستهوينا التأمل فى أى قانون وضعى
كالقانون القائل : لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ، ومضاد له فى
الاتجاه . . ثم نرتب على هذا القانون استنتاجات ومساائل ومشاكل
لا حصر لها ولا عدد . . وإذا نحن نظرنا إلى ما بين أيدينا ، وجدنا الإعجاز
الحقيقى الشامل فى القرآن العظيم .

إنه بمنطق العلم المتقدم ، سلسلة من القوانين والمعادلات ، تتحقق
فيها النتائج ، وتلمع فى مقدماتها الأسباب .
ولننظر ما يقول القرآن فى مثل موقفنا اليوم . . إنه سبحانه عندما
يتمرر فى قول فصل :

(وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)
إنه قانون الحركة والدفع . . نلمسه فى الماء الراكد حين يفسد ، والماء

الجاري وهو يصفو ويتحرك ويتجدد ، كذلك الأفراد والأمم .

وحينما يقن الحكيم العادل :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) معادلة صريحة . ترتبط النتيجة فيها بأسبابها .

أو حينما يصفنا ويكرمنا بقوله :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) فهي . . ليس تفضيلاً عنصرياً يعتمد على النسب أو الحسب أو المال أو نوع الدم أو الجنس ، ولكنها معادلة ترتبط أيضاً بالسبب والنتيجة .

إنه جلت حكمته يدعونا إلى الأسباب ، ويوضح لنا النتائج . . إنه يريد أن توضع هذه القوانين وهذه المعادلات موضع التنفيذ من أصحاب اليقين . . أو موضع الاختبار من أهل الشك والريبة . . فلهم الحق في أن يتشككوا حتى يتبينوا ، وأن يرتابوا حتى يؤمنوا . .

ولكننا نريد النصر . . دون أن نراجع المعادلة . . دون أن نكتشف في أنفسنا متطلبات النصر .

نريد أن نكون خير أمة ، دون أن نلتزم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله .

وقس على ذلك ما احتواه الكتاب الأعظم ، من قوانين ومعادلات ، لاتقبل الشك ، ولايأتيها الباطل . . شأن كل قانون يثبت بالتجربة ، ومعادلات تجسمت في التطبيق أربعة عشر قرناً : (كِتَابُ أَحْكَمَتِ

(آيَاتُهُ) . (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) .
(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) .
أسباب محسوبة . ونتائج مؤكدة . . يجب أن يوضحها ويبلغها
الذين يتصدون للدعوة والخطابة . . فنحن عندما نسمع من يقول :
إننا لمنتصرون . . محال أن ينتصر اليهود على المسلمين . . لابد أن يتحقق
وعد الله . . عندما يقال هذا دون توضيح الأسباب ، يكون هذا كلاماً
أجوف . . ضرره أكثر من نفعه . . بل إنه قد يصيب القوم بالتخاذل ،
وقد يضرب عليهم الغفلة ، ويقعد بهم مع القاعدين .
حاشا لله أن يدعو إلى ذلك . . وهنا تتضح المسئولية في إعلان
الالتزام والتكاليف ، قبل أن نمنى الناس بالوعود والآمال .
بذلك يكون للقانون الإلهي منطقته الخالد المتجدد ، وأثره الفعال
في إحياء الأمة . . فنحن في موقف الحشد ، أحوج ما نكون إلى جلاء
البصيرة ، حتى نرى أبعاد المعركة ، ويعرف كل فرد وكل مسئول ، أن
نصر الله وقف على من ينصره . وأن خير الأمم ، مرهون بالأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر والإيمان بالله .
إذا كنا من أصحاب اليقين . . يكفيننا أن نعمل . . وليتظر المتشككون
النتائج . . . إنهم سيرون الإعجاز الذي يقلب شكهم إلى يقين .
وإني إذ عكفت على الكتابة في هذه المناسبة العظيمة ، تذكرت
يوم دعيت لأتكلم في مناسبة عظيمة سابقة ، هي الاحتفال بمضى
أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن ، فقد انتابني يومها رهبة بلغت
منى درجة الخشية ، في لقاء عام أتحدث فيه عن القرآن . . . وإني
لأحس الآن الإحساس نفسه ، فالحديث عن مولد النبي المصطفى ،
صاحب الدعوة ، ورسول الرحمة ، يملؤني كذلك خشية ورهبة . . لكنها

خشية طيبة ، ورهبة محبة ، فهي في هذه الأيام . . مطلوبة ومرغوبة . .
فكلما اشتد الأمر على المسلم . . هرع إلى سيرة هذا الرسول العظيم ،
فيجد عندها المنطلق إلى الأمل ، والمنطلق إلى الرجاء . .

وإننا حينما نتذكر سقوط القدس في أيدي أعداء الله ، ونحن نحتفل
بمولد النبي ، يعتصر قلوبنا الألم ، لأن اقتحام مسرى النبي ، سيظل
يؤرق كل مسلم ، وكل صاحب عقيدة سماوية ، حتى تعود القدس -
كما أرادها الله - لمن يعرفون لكل دين قدسيته ، ولكل عقيدة حرمتها ،
ولكل نبي كرامته ، فإيمان المسلم لا يصح بغير الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسله . . لا تفرق بين أحد من رسله . . من أجل هذا كان المسلمون
أبر الناس بالقدس . . وأحفظ الناس للقدس . . وأحق الناس
بالقدس .

على طول التاريخ ، وعبر القرون ، وجد المسيحي واليهودي فيها
الأمن والأمانة والأمان . . لأن مفاتيح القدس كانت بأيدي المؤمنين
بكل دين سماوي . . كانت بأيدي المسلمين ، ودينهم دين السلام ،
فعاش السلام في أرض السلام .

أما عندما يتحكم في القدس ، من لا يؤمنون إلا بالصهيونية ديناً ،
وبأرض المعاد - كما يدعون - منطلقاً للتوسع والعدوان وسفك الدماء
فكيف يمكن أن يستقر أمن أو يكون سلام ؟ . .

إن القدس لم تسقط في عام ١٩٦٧ ، بل سقطت في عام ١٩١٧ ،
حين دخلتها القوات البريطانية وقال «الجنرال النبي» قائدهم المعروف كلمته
المشهورة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

إن هذا القائد لم يكن صادقاً فيما ادعى ، فالحق أن الحروب
الصليبية لم تنته في ذلك الوقت ، بل سقط عنها القناع . . وانكشفت
حقيقتها المخفية وراء الصليب . . وعرف من لم يعرف أنها كانت حرباً

استعمارية ذات مطامع احتكارية . غايتها استنزاف خيرات الشعوب وخامات الشرق . . . والدليل قائم في أن تلك الحروب قد فتحت الطريق إلى المؤامرة الكبرى على فلسطين ، بإقامة وطن لليهود ، ثمناً للذهب الذي مولوا به الحرب العالمية الأولى ، وكل حرب قامت بعدها . . . كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله .

قد يحسب البعض أن تواطؤ الاستعمار مع الصهيونية ، على احتلال فلسطين ، وعدوانهم المتواصل على العرب ، استعداداً لتنفيذ مخططهم : من الفرات إلى النيل — قد يحسب البعض أن ذلك هو قمة التحدي للعالم العربي والعالم الإسلامي . . . حينما يقتحمون عليه أرضه ، ويقيمون في القدس وعلى أرض السلام معسكراً إسرائيلياً يصبون فيه قواهم وأسلحتهم . . . وهم يظنون أنهم بذلك يدقون المسار الأخير في الكيان العربي الإسلامي ، فيفصلون مشرقه عن مغربه ، ويمزقون ذلك النسيج المتكامل ، على الخط العريض ، من باندونج إلى الدار البيضاء . . . لا يتصور هؤلاء لحظة أنهم مسخرون لذلك ، من أجل غاية عظمى ، وغرض أسمى . . . لا يتصورون أن إرادة الله تستخدمهم لدفع هذه الأمة ، لكي تنهض من غفلتها ، وتنبعث من مرقدتها ، وتقوم لتؤدي رسالتها من جديد ، تنفيذاً للقانون الإلهي ، والمعادلة الحكيمة :

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)

مسخرون ورب الكعبة ، لدفع الأمة المحمدية ، إلى مركزها الذي قدره الله ، وإلى مكانها الذي اختاره الله ، فقد بلغ رد الفعل بالظلم الدولي أقصاه ، وانتهكت الصهيونية وأعوانها كل الحرمات ، وداسوا كل المقدسات . . . ولا يمكن أن يحدث هذا دون أن يتجلى عدل الله . . . فنجد على الطرف المقابل من المعادلة هذا السؤال :

من ذا الذى كان يتخيل أن يقوم شعب فلسطين ، لهباً من تحت الرماد فى ثورة تتحدى كل مقاييس العقل ؟

سبحان من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .. من كان يتصور أن يحدث ما نرى ونلمس من تضامن عربى وإسلامى ، يتجاوز القول إلى العمل ، وإلى البذل يوماً بعد يوم ؟ إن من خلال دماء المعركة ، ومن خلال الضحايا والمآسى ، ومن واقع القدس الأليم ، تلوح بشائر مولد فجر جديد ، بكل ما يحيط عملية الميلاد من مشاق ومتاعب وتضحيات .

لقد أسموها حرب الأيام الستة ، ولا أدرى كيف نظرت إسرائيل إلى ما بعد هذه الأيام الستة وقد ظنتها نهاية المطاف ؟ لقد وجدت نفسها فى أول طريق شاق .. انفتحت عليها كل الجبهات المحسوبة وغير المحسوبة .. والتى كانت فى التقدير وفى غير التقدير لحساب المعركة . ومع الأيام .. ومع الصمود .. ومع الصبر .. ومع الصلاة .. نستطيع أن ننظر إلى ضوء الفجر الحقيقى .

إننا فى موكب الذكرى الحمديدية العطرة ، ونحن فى قلب المعركة ، نستطيع الثقة بنصر الله ، ما دمنا نعتصم بحبل الله ، ونقتدى برسول الله ، جاءنا بالوعد الحق ، ولكنه يأتى من خلال المعادلة الربانية :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

قد تسمعون ونسمع من يقولون : أين نحن من هذه القوى الهائلة ؟ .. هل للدول الصغرى مكان أو مجال فى الصراع ؟ .. إن إسرائيل تستند إلى قوى الاستعمار مجتمعة .. فما دورنا نحن ؟ .. وماذا نستطيع ؟ ..

ثم يذهب بهم التفكير السقيم إلى التشكيك فى قيمة التسليح ، وفى

جدوى الإتفاق عليه : أمام عدو يتحدث عن القنابل الذرية ، والحرب الكيماوية . . في مجال الحرب النفسية .

ونحن أيها الإخوة ، لانجد مناسبة أفضل للرد على مثل هذه الأوهام ، من هذه المناسبة الكريمة ، مناسبة مولد سيدنا محمد . . مولد اليتيم الفقير ، في صحراء قاحلة ، جعل من بدوها الذين يربطون الأحجار على البطون ، قادة هزموا أكبر قوتين في عصرهم : قوة الفرس وقوة الرومان . . لقد كانوا على الحدود المباشرة للجزيرة العربية . . والسؤال هنا : كيف انتصر عليهم محمد والذين آمنوا معه ؟ . .

هل تساءل أحدهم : هل نستطيع الوقوف أمام كسرى في فارس وأمام هرقل في الشام ؟ . . هل كان النصر بكثرة الحشد ووفرة السلاح ؟ إن تشريع القتال كما أنزل يقول :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) .

فأعد النبي ما استطاع من الرجال والسلاح ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لكن الإعداد لم يقتصر على السلاح والتدريب عليه ، بل تجاوزه إلى إعداد الروح المبشرة بإحدى الحسينين .

أعد النبي لأعداء العقيدة كل ما استطاع ، وفي جميع غزواته ما كانت قوته من الرجال والسلاح تزيد على ثلث قوة أعدائه على أحسن الفروض . . ولكنه كان يسأل الكتائب الحضر دائماً :

« أتصبرون عند البلاء ؟ » . . قالوا : نعم .

« أتشكرون عند الرخاء ؟ » . . قالوا : نعم .

« أثبتون عند الحرب واللقاء ؟ » . . قالوا : نعم .

فقال النبي : « مؤمنون ورب الكعبة » .

وصدق الله وعده

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) .

لم يسأله أحد منهم كيف تقف غداً أمام جحافل كسرى في فارس . .
وجحافل هرقل في الشام ؟ . . فإن أحداً منهم لم يتشكك لحظة في
وعد الله .

كذلك نحن اليوم ، نحذف من حساب المعركة كل من يشك في
نصر الله ، بعد أن اقتدينا برسول الله .

فإننا بحمد الله ، من حيث الإعداد المادي ، نمثل في المعركة العربية ،
مهما طال أمدّها قاعدة النضال القادرة على الصمود . . القادرة على
الردع . . القادرة على الرد . . هذا الصمود الذي نراه في الجبهة الداخلية أبلغ
من كل وصف . . ونلمسه على خط المواجهة في قواتنا الباسلة ، وقد
أعيد بناؤها في سرعة مذهلة ، فأصبحت بشهادة الأعداء أقوى مما كانت
عليه قبل ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وهؤلاء قادة إسرائيل يعدون قوة مصر عدوهم الأول ، وفي كل معركة
يضعون في تقديرهم القضاء على قوة مصر ، حتى يفتح أمامهم الطريق
إلى ما يريدون . . وما يريدون إلا الفساد في الأرض . . يسخرون من
أجله قوى الاستعمار . . وهي ماضية في تزويد إسرائيل بالسلاح والعتاد . .
تحت ضغط الصهيونية ، تلك الحكومة الخفية ، التي تتحكم في مقادير
دول كبرى ، وتزرع من حولها الحقد في كل مكان .

أما نحن ، فقد وقفت إلى جانبنا في التسليح — بعد أن فقدنا معظم
سلاحنا في عام ١٩٦٧ — الدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد
السوفييتي ، بغير ضغط ولا تحكيم ، بغير قيد ولا شرط . . سوى شرط
الضمير الإنساني الذي يقف بجانب حق العرب بغير حدود .

وعندما نذكر الحق العربي ، يجب أن نذكر إلى جواره أن الحق



وحده قوة ، وليس لأعدائنا من هذه القوة نصيب . . . وهى اليوم قوة
لست عزلاء بحمد الله .

وإننى أقول فى هذه المناسبة لأولئك المتشككين : لو كانت إرادة
الله قد شاءت أن تبنى هذه الأمة . . ألا يكون للبناء بداية ؟ . . وهل
يكون من عملنا نحن هذه البداية ؟ . . أم هى مشيئة الله ؟ . .

(سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

محمد اليتيم الفقير ، يقوم فى صحراء قاحلة ، فى بلد غير ذى زرع .
ليحمل النور والرحمة والخير إلى البشرية ، مؤكداً للعالم أجمع أن الأمر
يعتمد أولاً وآخرًا على بناء الفرد ، وعلى بناء الأمة بمجموع أفرادها ،
الأفراد الذين قالوا لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم
إيماناً .

فعندما قضى الله لهذه الأمة أن تبعث . . وجدنا أنفسنا ، بقيادة
الزعيم الملهم جمال عبد الناصر ، طيب الله ثراه ، نستعد ونتحرك ، لإعلان
هذه الثورة .

ومنذ كانت الثورة سرًا فى ضمير الغيب . . لم نسأله مرة قبل ٢٣ يوليو
١٩٥٢ كيف نستطيع الوقوف أمام قوات الإمبراطورية البريطانية ،
وكانت تعسكر فى القناة وفى سيناء . .

لم نسأل فى أمر القوى الخفية التى كان يمكن أن تتدخل لتقمع هذه
الثورة . . كنا نؤمن بقدرة الله ، ونثق بنصر الله . . كنا مسلحين
بقوة الحق . . حق هذا الشعب فى أن يعيش حرًا سيداً ، يصنع حياته
على أرضه وفق مشيئته . . ويحقق بإيمانه وعزائمه ما يشبه المعجزات .

وكان الله قائد هذه الثورة فانتصرت ، وطهرت أرض الوطن من
الأعداء الراغلين مرتين ، وتصور البعض أننا قد تخلصنا من الاستعمار

وأعوانه ، ولكننا نجد حروباً تفرض علينا . حروباً تقف من إرادة الله — لا موقف التحدى — بل موقف الدفع لهذه الأمة إلى الحياة الجادة . لكي تكون جديرة بالانتساب إلى هذا النبي ، وجديرة بنعمة الإسلام ، فلا بد أن يهيئ لها أسباب اليقظة العارمة ، فتقوم وهي تستشعر الخطر ، لتبنى بيد ، وتحمل السلاح بالأخرى ، فتقيم الصناعة ، وتؤكد معاني القوة ، القوة المادية والقوة الروحية . .

تأخذ بالأسباب وهي تضمن النتائج ، تأكيداً لمعادلة النصر ، وتحقيقاً لقوانين القرآن ، فإن الله لم ينزله ليكون زينة المكتبات ، ولكنه نور يستقر في الصدور ، ويشع منه برنامج العمل . . فيكون القرآن هو الخطة ، ويكون الرسول هو القائد ، لنستطيع أن نقف أمام أعداء الله ، الذين غضب عليهم ولعنهم ، بما قتلوا الأنبياء بغير حق ، وكانوا دائماً يعتدون .

وإني أعتقد يقيناً أننا حين نحتفل بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما نحتفل بمولد قوة عظمى ، يحسب لها أعداؤها ألف حساب ، فهم يعلمون جيداً مدى هذه القوة ، عندما تدفع أو تستفز . وقد يسأل سائل : متى هذا الوعد ؟ . .

والجواب أن الله حينما بشر بالنصر ، بشر به أناساً صقلتهم التجربة ، واستقر في قلوبهم الإيمان ، وأصبح اليقين أقوى لديهم من كل نتيجة . . حينما باعوا أنفسهم وأموالهم لله . . كان هدفهم الأكبر هو الاستشهاد في سبيل الله . . وكان النصر عندهم يأتي كنتيجة مؤكدة وبشرى للمؤمنين . . بدليل أن الله حينما بشرهم بالنصر ، قال لهم :

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ).

أمر آخر سوف تؤكد الأحداث في القريب . . أن الذين يساندون

أعداءكم ، لن يصبروا على صمودكم . . فهذا الصمود يكافهم الكثير . .
وقد بدأت الكفة تتأرجح . . وبدأت المصالح الاستراتيجية تتدخل في
الموقف . . وسيكون عدوكم على استعداد للتسليم ، بقدر ما في نفوسكم
من تصميم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا
نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ
قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَذْبَارَ ،
ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ)

إن صمود شعبنا المناضل ، وإن وقفة جيشنا الباسل ، قد أمدّا
الزعيم القائد الراحل بقوة من عند الله ، تؤيده في تدبير التكاليف ، وتعينه
على واجب الالتزام ، لا يشغله عن ذلك شاغل ، فكل وقته كان
للمعركة ، يعيش فيها ولها ، كما يعيش شعبنا اليوم بكل ما وهبه الله من
عزم وتصميم على تحرير الأرض وتحقيق النصر .

لقد أعددنا لهم بعون الله كل ما نستطيع من قوة ، وهذه بشائرها
في طلائع الفدائيين ، تقذف الرعب في قلوب (المنتصرين !) في القدس
وجولان وسيناء . . وهذه هي القوات العربية المسلحة ، التي حولت خط
دفاعهم الحصين إلى رماد . . وهزلت قواتهم مذعورة ، هرباً من وطأة
النيران المصرية ، إلى مسافة بعيدة داخل سيناء ، ليقبضوا خطا آخر

يحميهم من جيش مؤمن ، جعل شعاره : النصر أو الاستشهاد .
 وإني في هذه المناسبة ، أتجه إلى قواتنا الضاربة على طول الجبهة
 المصرية ، والجبهات العربية ، وأذكر الزعيم القائد الشهيد جمال عبدالناصر ،
 ومن قبله الشهيد عبد المنعم رياض وغيرهما من الشهداء ، لا لأستثير
 الأسى والعبرات ، ولكن لأقول لأعدائنا ، أعداء الله : كل فرد في
 القوات العربية اليوم ، هو طراز أولئك القادة الذين انطلقت أرواحهم إلى
 السماء ، إلى الجنة ، بعد أن تركوا لجنودهم وضباطهم المثل في التضحية ،
 والمثل في الفداء ، وكان استشهادهم بداية مرحلة جديدة في المعركة .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ
 مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) .

قلوبهم غلف . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . لا يقاتلونكم جميعاً .
 بأسهم بينهم شديد . كل جندي مؤمن بعشرة منهم . وما رميت إذ رميت
 ولكني الله رمي .

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ
 دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا
 أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَاتَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ
 لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ
 بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) .

ما ظننتم أن يخرجوا من المدينة ، بعد مؤمراتهم ضد النبي ومحاولاتهم قتله ، وبعد أن نقضوا عهودهم معه ، وحرضوا حلفاءهم عليه ، وقد حسبوا أيضاً أن حصونهم سوف تحميهم ، وأن قوتهم المادية سوف تعصمهم من أمر الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، حتى خرجوا من المدينة أذلة صاغرين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

اعتبروا يا من تتساءلون اليوم : إلى متى يبقى حفدة يهود المدينة في سيناء ، والصفة الغربية ، وهضبة جولان السورية . . وقد يظن البعض أنهم لا يخرجون . . كما ظنوا هم أن خط بارليف في سيناء سيحميهم من هجمات الفدائيين المصريين ، فإذا هم يأتونهم من خلف ، وتمطرهم المدفعية المصرية من أمام ، فإذا القوة التي لا تغلب ، كما تذيع أبواقهم ، يموت الجندى فيها بالسكنة القلبية لمجرد رؤية فدائي مصري يصبح في وجهه : هذه أرضنا .

أعود فأقول إن سقوط القدس على هذه الصورة ، يعد الشرارة الأولى لقوة الدفع ، فلا تكون قضية فلسطين قضية عربية أو إسلامية فحسب ، بل تكون قضية إنسانية جمعاء .

والبدء هنا في القوة المذهلة التي انبعثت في حركة تحرير فلسطين . . لقد اكتشف الشعب الفلسطيني قوته الذاتية في حجم المحنة . . لقد قالوا عنه إن هذا الشعب قد انتهى وذاب . . ولكنه أجابهم بالمدفع . . واللغم . . والقذاء . . قام إليهم كإشارة القدر الذي غفلوا عنه . .

ومن صفهم نأتى الآن بالدليل . . فقد نشرت «الإيكومنست» في أحد أعدادها الأخيرة هذا التعليق على عمليات فتح ، قيادة منظمات المقاومة الفلسطينية :

« إن الدول العربية التي وجدت نفسها عقب حرب الأيام الستة ،

تحت ضغوط سياسية تطالبها بالكثير من التنازلات . . قد وجدت نفسها الآن في المركز الأقوى على مجابهة هذه الضغوط . بسبب الورقة الراجعة التي أصبحت في أيدي العرب . وهي تتمثل في تصاعد حركة الفدائيين العرب داخل الأراضي المحتلة .

ومع انتصارات أبطال التحرير في الجبهات العربية ، تأتي وحدة الصف في تعاون عربي وبذل للصمود في المعركة ، وإحساس يزيد بالشعور بالخطر ، والاستعداد لتحقيق الأمل .

والأمل هنا في نصر الله ، لأننا ندافع عن حق الله . . فعن أى حق يحاربنا الأعداء ؟ . .

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) . كان ضعيفاً أمام قوة الإيمان . . أمام الذين لا يتخلى عنهم الله طرفة عين . . أمام الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا .

سيدى يا رسول الله

في احتفالنا بذكرى مولدك الشريف هذا العام ، نبهل إلى الله ، أن يدوم في قلوبنا هذا الاحتفال ، حتى نرى مصارع المفسدين في الأرض ، وحتى تعود مفاتيح القدس إلى الأمان عليها من أتباعك ، أيها الرحمة المهداة .

أما أولئك الذين يتساءلون عن مصير الحق أمام جبروت القوة ، فإننا ندعوهم ونكرر ما دعوتنا إليه :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) .

والصبر نصف الإيمان . ونحن في حاجة إلى كل الإيمان ، وهو
يأتينا بالصلاة ، بالصلة الدائمة بالقوى القادر . . القوى فوق كل قوى ،
والقادر على هلاك كل ظالم . .

قال تعالى في حديث قدسي :

[من كان لي مطيعاً ، كنت له ولياً ، وعزتي لو سألتني إزالة الدنيا
لأزيتها له] .

ونحن يا رسول الرحمة ، لا نطلب زوال الدنيا . وإنما نطالب أن
تسود الرحمة بين الناس كافة ، وإننا لصابرون على البلاء . . ثابتون
عند اللقاء . . نعاهدك في ذكرى مولدك ، أن نقاتل على طريقتك ،
دفاعاً عن كل عقيدة سماوية ، ضد عدو يحارب كل عقيدة ، ويوشك
أن يورد البشرية موارد الهلاك ، ومسئولية الأمة المحمدية ، هي إشاعة
الرحمة في العالمين .

وأنت . . أنت لها يا رسول الله . . وإنني أراك . . أراك القائد
المنتصر والبطل الرحيم . . مولدك نور ، وحياتك جهاد ، وقوتك الغالبة ،
ورسالتك الرحمة ، وأمتك خير أمة ، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ،
وتؤمن بالله ، وتخوض النار من أجل أن يعبد الله وحده ، ولينصرن الله من
ينصره ، إنه لقوى عزيز .

الفصل الثالث

إسلامنا عقيدة شاملة تحتوي الاشتراكية

لقد شاء الله أن يضع بين أيدي العلماء مسئولية دعوة الإسلام التي هي دعوة اشتراكيتنا.. إنها مسئولية الرسالة، مسئولية إعلاء كلمة الله، ولا جدال في أن هذه المسئولية ذات جوانب عدة، وأنها تقتضي مفهوماً موحداً.

فلو انطلق كل داعية على أساسه، لكانت الموضوعات التي يتناولها ذات انفعال خاص. وقد لا تصيب الهدف العام. فنحن جميعاً بشر، وكل منا يتأثر ويؤثر. فإذا انفعِل بما يسمع، وكان ما سمعه ضاراً، فضرر انفعال الداعية لا يقع عليه وحده، بل يصيب المجتمع الذي يستمع إليه.

ومن هنا يتضح أن مسئولية الدعوة ليست مسئولية فردية، وأن الأمر يتطلب منا وحدة فكرية، حول المفاهيم العامة، حتى تكون دعوتنا هادفة، ولا نسيح في خضم العلم بلا هدف.

أكتب هذا، ولست أعلم منكم بأن الرسالة الإسلامية عندما بدأت كانت الأحداث التي تمر بالمسلمين هي موضوع الوحي آية فآية، وكان نزول الآيات مرتبطاً بأحداث الحياة كل الارتباط... وإلا فتصوروا معي لو كان المسلمون يخوضون معركة حربية مثلاً، ثم نزل الوحي في تنظيم الزواج والطلاق والميراث... ماذا يكون الموقف إذن؟..

أعتقد أنه لو كان الأمر كذلك، لما آمن الناس بالقرآن، ولما انفعَلوا بالإسلام.

إنني حينما أدعوكم أن تتفاعلوا مع الأحداث، أريأبكم أن

توافقوا الأحداث ، ثم أدعوكم أن تؤثروا في الأحداث ، أدعوكم إلى دفع الناس إلى الخير ، ولكم في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، المعين الذي لا ينضب ، والذخيرة التي لا تنفذ .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) .

وإذا أردنا أن نتخذ سبيلنا في دعوة الناس إلى الخير ، وجب أن نعرف أين مكاننا ، ومن نحن ، وإلى أين نسير ، وأى هدف نحقق ، وباسم من نتكلم ، ولمن نعمل ؟

مكاننا يا دعاة الإسلام هو قاعدة التحرر .

مكاننا هو مركز الدعوة إلى العزة

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

مكاننا في موقعنا أيضاً وهو مصدر قوة ، مكان الأمة الوسط ، والوسط هو الاعتدال . . الوسط هو المكان المتوسط الذي يسهل الانتقال منه ، والإشعاع منه ، والتأثير منه . .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

فإذا أردنا أن نتبين خطانا ، ونعرف إلى أين نسير نتجه دائماً إلى الله عز وجل ، فقد سمي المسلم مسلماً ، لأنه أسلم وجهه لله ، ومن يسلم وجهه إلى الله ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، فهو دائماً قوى بهذا الحق ، مستقيم على الطريق .

أما الهدف فهو الرحمة .. الرحمة هدف الإسلام في كل قول وكل

عمل (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) . جاءت الآية بنفي النفي للتخصيص والتحديد ، ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وإليه سبحانه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه .

وإننا جميعاً حين نعمل . فإننا نبدأ كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم تذكيراً بالهدف . حتى لا ننحرف . وتاكيداً للرحمة . حتى لا نضل . اللهم هب لنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشداً .

وأنت تعلمون أن رحمة الله لا تعني معنى الشفقة ، ولكنها رحمة القدرة ، أعلى مراحل القدرة ، فإنه لا يقوى على الرحمة إلا القادر عليها . وإن الرحمن الرحيم سبحانه هو القوى القادر . وهو الذي يرشدنا دائماً إلى أن قوته وقدرته تهدفان إلى الرحمة ، الرحمة التي عنها الخليفة أبو بكر بقوله : « إن الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له ، وإن القوى فيكم عندي هو الضعيف حتى آخذ الحق منه » .

باسم من نتكلم ، باسم من نتحدث ؟

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

نتكلم باسم هؤلاء الذين وجه الله رسوله إليهم ، وأمره ألا يتخلي عن صحبتهم ، ولا يتحول نظره عنهم . ولا يعمل إلا لهم ، ولو تخلى النبي عنهم وعمل لغيرهم ممن اتبعوا هواهم . لانحرفت الدعوة ، وانقض الناس عن الرسالة ، وأصبحت المسألة مسألة مصالح خاصة ، ولا كانت الرحمة للناس كافة .

ولكن الله حفظ رسوله ، وحفظ عليه استقامة القصد ، واستقامة

الغاية مهما كلفه الأمر . ومهما أصابه في سبيله من عنت ، وتعب ، وأذى . وكلنا يعلم ماذا قال لعمه وقد جاء يقول له ما قال المشركون : إن كان محمد يريد مالا أعطيتاه ما لدينا . وإن كان يريد ملكاً ، ملكناه علينا ، ليكف عن دعوته .

فأجاب صلى الله عليه وسلم بقوله :

« والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته . »
هذا هو مثلنا في تحقيق الاشتراكية على أنها وسيلة الرحمة ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة .

وها نحن أولاء ننادي بالعدالة الاجتماعية من أول يوم في هذه الثورة ، لم ولن تتحول أعيننا أبداً عن أولئك الذين نتحدث باسمهم ، ونعمل من أجلهم .

قلت وسأقول دائماً إن الرحمة هدف هذه الثورة .

هدف الثورة عندما قامت لتحرير الوطن من حكم الأجنبي ، ونحكم المستغل وظلم الإقطاعي ، وجبس المال في أيدي فئة قليلة ، لاتعرف حق الله فيما تملك ، ولا تؤدي حق الجماعة فيما تكتنز ، ويحسب كل منهم أنه لا يراه أحد ، ولن يقدر عليه أحد ، ويسخر الناس في خدمته ، ثم لا ينالون منه ما يسد الرمق ، أبسط حق لأي مخلوق حي .. فهل يمكن أن تتحقق الرحمة في مجتمع كهذا ؟ ..

هل لنا أن نتدبر هذه الآيات البيئات :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ . أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ

يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ . يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا . أَيَحْسَبُ أَنْ

لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ . أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا
ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) .

وهكذا نجد أن العقبة في بناء المجتمع هي الأثرة ، وهي الأنانية ، وهي
الحرص على جمع المال ، والتحكم في الثروة ، واحتكار أرزاق الناس
ويقول أهلك ما لا لبداً ، ولا يذكر نعم الله عليه ، وقد جعل الله له
عينين ليرى ، ولساناً يفصح ويبين ، وعقلاً يدرك ، وقلباً يحس بشقاء
الملايين .

وحسبنا أن نتابع حقائق الدخل القومي في بلدنا ، لنرى الظلم البين
في توزيع هذا الدخل . إن ٦٠٪ منه كانت تذهب إلى خزائن الدين
لا عمل لهم سوى انتظار نصيب الأسد . . و ٤٠٪ من هذا الدخل هي
مجموع ما كان ينفق في الأجور وتكاليف الإنتاج .

كيف يمكن أن يستقيم الوضع ؟

كيف يمكن أن يقوم البناء ؟

كيف يمكن أن تتحقق الكفاية والعدل ؟ . .

والبناء هو بناء الأمة . بناء البشر . . لم يعد هذا البناء مجرد نية
طيبة أو شعار براق . . لكن لدينا خطة عامة للتنمية لبنى في مجال
الإنتاج ، وفي مجال الخدمات ، ليتمتع كل فرد في هذا المجتمع بحقه
في العلم ، وحقه في العمل ، وحقه في العلاج ، وحقه في الرعاية ، وتأمينه
على ذلك كله . . وتأمين أسرته من بعده .

فهل كان ممكناً أن يتحقق شيء من ذلك . والثروة كلها في أيدي
 فئة قليلة استبد بها الطمع . وتحكمت في مقادير الناس بغير رحمة ؟
 فم إذن قامت الثورة ؟
 ولئن نادى بالعدالة الاجتماعية ؟

إن مدادكم يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء . وعلى كل منا واجب
 تبصرة هذه الأمة بحقوقها في الحياة الكريمة . وإننا لم نصدر القوانين
 الاشتراكية لنجعل أموال البلد ، ولا أرض البلد . ملكاً لجماعة
 أو لفرد . . .

هذا الوطن وطننا جميعاً ، ولم نعرف في الإسلام حقاً لا يرتبط
 بمصلحة الجماعة . فإن جهل البعض بأحكام الدين ، وإن أنكر البعض
 أن الملكية وظيفة اجتماعية ، فقد فرض الله على الحاكم أن يقف بجانب
 الضعيف حتى يأخذ الحق له . . وفرض على الحاكم أن يستخدم المال
 لمصلحة الجماعة .

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ، (وَمَا تُنْفِقُوا
 مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) .

وإن قوانين الإصلاح الزراعي ، وتحديد الملكية . والتأمين . وتحديد
 الدخل وتخصيص ربع الأرباح للعمال ، وتمليك المعدمين ، والتأمين
 الاجتماعي . . كلها قوانين مستمدة من أحكام الإسلام . لانتزاع
 الأثرة من قلوب المستغلين . . من نفوس المتكالبين على جمع المال . .
 لا تطاوعهم نفوسهم على التضحية بشيء مما يتحكمون فيه ، ومع ذلك
 كله فإن الثورة لم تصادر ما يملكون ، فعوضتهم عن جزء من الأرض
 وجزء من المال بسندات على الدولة . وحررت الأموال الحبيسة لتحرك ،

وتكفل لقمة العيش الكريمة للملايين المكدودة . وها هي ذى قد رفعت الحراسة أخيراً مما يدل على أننا نعمل لمصلحة الجميع كما تقرر تقنين الثورة لمصلحة الملايين .

إننا نتجه إليك يا رسول الله في كل عمل .. نرد إليك كل شيء .. هدفنا تحقيق رسالتك الرحمة بكل مواطن . سبيلنا أن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ، وأن يجد العمل كل طالب عمل . وأن يؤمن كل عامل على يومه وعلى غده . وأن تسود في هذا البلد شريعة العدل شريعة الله .

ما أردت بهذه الخواطر أن أعلمكم درساً . فأنتم أعلم مني بآفاق الرسالة .. ولكني أردت أن أنقل إليكم صورة من المعركة الكبرى التي نخوضها الآن .. معركة بناء الأمة من جديد .. وليس هذا بالأمر اليسير .

إننا دعاة رحمة بالمجتمع كله . ولنا في أحكام ديننا عصمة من ذلك كله ، ولنا في رسول الله الذي نحتفل بمولده في هذه الأيام أسمى قدوة في الدعوة إلى الرحمة ، وإلى التكافل ، وإلى الاشتراكية التي تجعل المال في خدمة الإنسان ، وليس أداة لإذلال الإنسان .

إننا في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا . نعتر بأننا نعيش الثورة الاجتماعية .. ثورة من أجل الخير للوطن كله .. ثورة للمواطنين جميعاً .. ثورة تمثل المبادئ التي يستهدفها العدوان الذي نقوم إليه الآن .

إننا نعيش في هذه البقعة الطاهرة من الشرق ، الذي اختاره الله سبحانه . ليكون مهبط الوحي . ومنزل النبوة ، ومنبع العلم ، ومبعث الرسالة .. وهذا فضل تفضل الله به علينا ، ولن نستطيع الاحتفاظ به . إلا إذا أصلحنا ما فسد من أنفسنا . وقوّمتنا ما اعوج من أخلاقنا ، وسبيلنا إلى ذلك هو التعاون على البر ، والتواصي بالحق والخير ، وأن

ننتهى عن كل ما تنكره ديانات الله ورسالات الأنبياء . . فنحن لا نريد أن نعتدى على أحد ، ولا نريد أن ننكر على إنسان حقاً من حقوقه ، فعلاقتنا كأمة واحدة ، وعلاقتنا بأمم الأرض وشعوب العالم ، نحصر أن تقوم على هذا الأساس الكريم العزيز ، الذى يرفع قدر البشرية ، ويرسى قواعد الحق والعدل والسلام والحرية والوحدة الأخوية .

وأذكر أن الرسول المختار صلوات الله عليه وسلامه ، كان يكثر من ترديد قوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ، وكان يتبع هذه الآية بالحديث الشريف : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام أعلم بقدر نفسه كإنسان ، وأنه هو أشرف الخلق عند الله . . كان يطيل العبادة والسجود ، ويطيل التأمل والقيام بالليل حتى تتورم قدماه ، وحتى أشفق عليه صحابته من شدة الإرهاق فى العبادة ، فقالوا له :

« لم كل هذا الجهد يا رسول الله وقد فضلك سبحانه على جميع العالمين ، وغفرلك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وأعطاك وحدك حق الشفاعة ؟ » فكان المصطفى الحبيب لمولاه يجيب عن ذلك بقوله دائماً :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فلنتدبر فى أنفسنا ، ولتكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة ، لنعرف قدر أنفسنا ، وإن مقياس هذا القدر العظيم هو الروح التى نفخها فىنا الله ، فربطنا إليه ، وأباح لنا الاتصال به ، والشكوى إليه ، وأذن لنا بالدعاء كما أذن لنا بالإجابة .

ولكن وصول الشكوى واستجابة الدعاء يتوقفان على قوة الصلة بيننا وبين الله ، وتأتى الصلة بما يقدم الإنسان من عمل ، يظهر به نفسه ، ويزكيها ، ويرفعها ، ويقربها من ربها ، ليحتل الإنسان مركزه الذى ارتضاه له ربه ، وقد كرمه وفضله على كثير ممن خلق .

أو يكون ضعف الصلة . إذا جهل الإنسان قدر نفسه ، وانحدر إلى عنصره الترابي ، أي عاد إلى الطين مجرداً من الروح ، لا قدر له ولا مكان عند ربه . واتبع هواه فكان أمره قرطاً . ذلكم هو شأن الإنسان عندما يخرج عن أمر ربه .

كذلك شأن الأمم . إذا تنكرت للمعروف واستباححت المنكر ، فإنها لا بد منحدرة في ميزان الإنسانية . وبذلك تفقد ما أراد الله لها من تكريم ، فيحق عليها القول . كما حق علينا من قبل . لولا أن تدارك الله مصر برحمته . فهيأ لها من بنينا من قاموا في وجه الظلم ، وغضبوا لكرامة الإنسان في هذا البلد . فثاروا من أجل الحق . وتنادوا بالجهاد ، متمثلين في ذلك بقول الصحابة في غزوة الخندق :

« نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً »
هل نسيت قول الله في أمتكم :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ؟

وقد آن الأوان لكي نعلم أن ديننا إيمان وقوة ، وأن تاريخنا فتح وحضارة ، وأن شرعنا دين ودنيا ، وأن حربنا جهاد وشهادة ، وزعامتنا أمانة وقيادة .

إن عزكم في اتحادكم ، واجتماعكم على عبادة الله ، وليست صوماً وصلاة فحسب ، ولكنها جهاد العبد في الاتصال بمولاه ، والجهاد يبدأ بالضعف أمام الله والقوة على من عاداه ، وسبحان من يحب الأقوياء ويجعلهم دائماً خيراً من الضعفاء . إن العبادة رياضة للنفس والقلب والروح ، إنها الإرادة الصادقة معززة بالإيمان واليقين .

لقد حارب الاستعمار عبادة الله بشتى الحيل والأساليب ، فأورثنا ضعفاً في الوازع والضمير ، وترك لنا عوامل الشر والفساد ، فقمنا على

قلب رجل واحد . لنظهر أرضنا من الشر ومن الفساد ومن ضعف الوازع
وضعف الضمير ، ونضع في ذهن كل مواطن ما لحق بنا جميعاً من
استبداد المستعمر :

العلم في المدارس كان ظلاماً . .

والحكم في الناس كان طغياناً . .

وكان الدين غريباً في وطنه .

قل جاء الحق . وانتفضت مصر . وانتفضت معها أخواتها من
البلاد العربية . وقررت أن تتركب الصعب لإدراك عزتها . وقررت أن
تخترق النار إلى الحرية وإلى الكرامة . فلامكان بيننا اليوم لخائن متحايل ،
أو خائف متخاذل . أو ضعيف متواكل ، أو مرجف بالزور
والباطل . .

إننا جميعاً اليوم في ثورة اشتراكية إسلامية . وقادة هذه الثورة أول
المؤمنين بحق العرب في الحرية ، وبأن هذا الحق يؤخذ ، وأن هذا العدو
يجب أن يطرد ، وأن بلادنا لا بد أن تسترد مكانها تحت الشمس .

* * *

صلوات الله وسلامه عليك يا من تفخر بأننا من أتباعه ، يا من
علمت الناس الدين على حقيقته ، وكنت أعلم الناس بربك وبرسالته ،
وتقدمت الصفوف في كل ميدان . فكنت الإمام في العلم وفي الصلاة ،
وأنت القائد في الحرب والنضال . . ويكفيه صلوات الله عليه أن ربه
هو معلمه ومربيه ، ثم يقول فيه سبحانه :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

هذا النبي العربي الأُمي . أرسله الله رحمة للعالمين ، فصَدَعَ بأمر ربه ،
متوكلاً عليه . بعد امتلاء قلبه بالإيمان . فجاهد في سبيل الله ،

لا يخشى عدوًّا ، فالله أحق بالخشية . . وقد اطمأن الرسول إلى حماية الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين . إذ هما في الغار . إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم يرها أعداؤه . فانتصرت الدعوة . وانتشرت الرسالة . رسالة الرحمة .

هذا هو نبيكم يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . بل هذا هو قائدكم ومثلكم الأعلى . فإن قلتم إن عدوكم أكثر منكم عددًا وعادة ، فإن نبيكم لم يقل هذا عندما كان ثاني اثنين في الغار . ولكنه قال : إن الله معنا . . فكانت السكينة وكان تأييد الله الذي وعد بنصره المؤمنين ، فما باله بنبي المؤمنين .

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الفصل الرابع

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ »

حديث شريف

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ، وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) .

قال عليه الصلاة والسلام : « أول من يسأل يوم القيامة رجل أتاه الله العلم فيقول له الله تعالى : ماذا صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم به أثناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله تعالى : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم . ألا فقد قيل ذلك .

ورجل أتاه الله مالا ، فيقول له الله تعالى : لقد أنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به أثناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك .

ورجل قتل في سبيل الله ، فيقول الله تعالى : ماذا صنعت ؟ فيقول : يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله تعالى : كذبت . وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك . أولئك تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة » .

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يقول الله عز وجل : الإخلاص سر من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . فاستغفروا ربكم يغفر لكم . وادعوه مخلصين له الدين .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، غَزِيْرٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

ألا ترون معى ، معشر المسلمين . أن نبيكم الذى نحتفل بمولده الآن قد جاء ليرحم البشرية مما تعانیه ، ويرحم النفس مما تقاسيه ، فيشيع فى الناس استقراراً نفسياً ، واطمئناناً روحياً ، وعدلاً اجتماعياً ، يقوم على قاعدة واحدة هى الرحمة أول الأمر وآخر الأمر؟

إن الرحمة التى كتبها الله على نفسه ، لخير البشرية ، وكثيراً ما تجهل البشرية ما فيه خيرها ، ويبحث أهل الضلالات جاهدين أنفسهم مبتدعين ما يزيد فى ضررهم وشقاؤهم . أفلا نتدبر رسالة الرحمة التى ما جاءت إلا لتبدل خوف الناس أمناً ، وضلالهم هدى ، وذلمهم عزة ، وعداوتهم أنجوة ، وضعفهم قوة — فيكونوا أشداء على الكفار رحماء فيما بينهم — وهذا شأن محمد والذين آمنوا معه ، رضى الله عنهم ورضوا عنه .

أذكر أنى بعد أن عدت من متزل الوحى منذ سنوات ، حيث تجاذبتنى فى رحلة الحج خواطر وأحاسيس طغت على نفسى ومشاعرى ،

أردت ألا أستأثر بها لنفسي . بل فضلت أن أنقأها لكم . لننتقل معاً إلى تلك البقاع المقدسة ، التي كانت مهبط رسالة الرحمة .. وإني لأذكر وقفة المسلمين في عرفة . وهم يبتاهون إلى الله العلي القدير ، يرجون الرحمة ويشفقون على أنفسهم من العذاب .. هناك وهم وقوف يلتمسون ذلك في سفح جبل الرحمة . الذي سمي كذلك . ليذكر الله كل ساع إلى رحمة الله ، فيدعوه في وقته هذه فيستجيب إليه ، ويسترحمه فيرحم ، على أن تكون الدعوة صادرة من قلب مؤمن ، ووصول بربه ، فإنه تعالى قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

إلى هذه البقعة الطاهرة دعينا ، فقلنا : لبيك اللهم لبيك . وورنا في طريقنا بجبل النور حيث كان يتعبد الرسول في غار حراء لينهيها للرسالة . رسالة النور والرحمة .

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) .

وبينا أنا مستغرق في معنى هذه الآية الكريمة . ألح علي سؤال ما صبرت على كتابه . فألقيته على صفي قائلاً :

— ماذا تظنون أن يعمل محمد بن عبد الله ، عليه أفضل الصلاة والسلام . لو بعث اليوم ؟ ماذا تظنون أن يصنع بالمسلمين ، وهم من الضعف والهوان والاستكانة كما نعلم ، أترونها يبدأ الطريق بجمع حكام المسلمين في مؤتمر فيخطبهم مثلاً ويوجههم ؟ .. أم ترونها يطوف بأرجاء العالم الإسلامي على اتساعه وامتداد رقعة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ليبشر برسالة الرحمة والنور من جديد ؟

ألقيت السؤال ، فعجب صفي ، ولم أنتظر منهم جواباً ، بل تصورت

أن صلوات الله وسلامه عليه . أن يعمل غير ما عمل في بدء دعوته . .
 هذه الدعوة التي كانت ، وما تزال ، وستظل ، أروع انقلاب ،
 وأخاد ثورة تحريرية في تاريخ البشرية .. أعتقد أنه لو بعث الآن ،
 لبدأ الكفاح من أول الطريق : سيبحث له عن أبي بكر يطمئن إليه ،
 ويصدق القول والعمل والتضحية . . سيبحث عن عمر ليحارب
 به أعداء الدعوة إلى الحق والقوة والرحمة ، ويسعى إليه على ، ليقود
 الشباب ويعلمهم إنكار الذات والفداء في أسنى صوره ، وسيأتي إليه
 عثمان ليكون مثلاً للإنفاق في سبيل الله .. سيبحث النبي الكريم عن
 أمثال هؤلاء الرواد وعن صحابة يطمئن إليهم ويطمئنون إليه ، فيكونون
 لسانه في الدعوة يتعلمون منه الكتاب والحكمة : مصداقاً لقوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) ، (وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) .

وهؤلاء نفر القليل ، وبحسب النبي ربه ومن اتبعه ، سيبدأ عمله في
 القضاء مرة أخرى على الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ، ونشئ بها ونهون
 على أنفسنا وعلى الناس .

إن الجاهلية في عصرنا هذا ، هي أشد وأكبر وأمر من الجاهلية
 الأولى . ففي المسلمين كثير أعرضوا عن ذكر ربهم ، فجعل
 معيشتهم ضنكاً ، وسيحشر كلا منهم يوم القيامة أعمى .

(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ،

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ
تُنْسَى .

إننى لمشفق على كل مصلح يقوم ليبدأ كفاحه فى هذه المحن التى
نقاسيها من أنفسنا ، فإن أمام هذا المصلح جبهات متعددة يجب أن
يستعد لها فى عزم وإصرار ، لا تقذف به الأهواء ، ولا تندفع به العواطف ،
ولا يتطرق إلى نفسه اليأس ، لأنها رسالة يجب أن تتحقق مهما كانت التضحية
ومهما كان الفداء . وإن البناء اليوم يحتاج إلى عناء مضاعف فإنه ليس
بناء فمحسب بل إزالة وبناء وتطهير وإقامة . . . يجب أن تزول الأنقاض ،
حتى يقوم الصرح الجديد ، ولا يعوقه عائق ، بل ينطلق انطلاقاً على
أساس صلب متين دعامة الإيمان . وسنده القوة .

(أَفَمَنْ أَكْسَبَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ،
أَمْ مَنْ أَكْسَبَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)
يا عباد الرحمن . . .
قال تعالى :

(أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِنْكُمْ ، لِيُنذِرَكُمْ ، وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

سبحانك يارب ! وما أعظم حكمتك ! لقد رأى البعض فى هزيمة
فلسطين نقمة ، وإننا لنراها نقمة أريد بها نعمة ، وشدة أريد بها رحمة ،
لأننا نذكر قولك الحكيم :

(وَأَنَا لَا نَذَرِي أَثَرٌ أُرِيدَ بِيَمَنِ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) .

إن تعاليم ديننا تقضى بأن الوقاية خير من العلاج . وأن الإسلام ليصف الدواء قبل وجود الداء . ولكنتا لم نأخذ بهذا الأمر ، فقد كان ينقصنا الإعداد والتنظيم . ومن بين ذلك الظلام تجلى نور الله فنشر رحمته بين قلوب نفر من ضباطنا الأحرار تواصلوا بالحق وتواصلوا بالصبر ، وقرروا أن أساس العلة والداء هو الاستعمار الرابض في مصر ، والمتمثل في كل ذنب من أذنا به ، وتحديد بهذا القرار ميدان المعركة . كان هنا في الداخل . . إنه الجهاد الأكبر ، جهاد مصر ضد كل نفس أماراة بالسوء وضد الشر الذي كان مسيطراً على رقاب العباد . . حتى تتحرر البلاد . من ذل حاكميها ومستعبديها . وهكذا قام الأحرار يحاربون دفاعاً عن رحمة الله بعباده . . قمنا نطبق أمر الله بقوة الله ، الذي هدانا إلى رحمته (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) فانطلقنا في ثورتنا المقدسة ، عسى أن نحقق لإخواننا في الله والوطن الأمل في الرحمة التي طالما انتظرناها جميعاً .

لقد عقدنا النية والعزم على أن نهتدي بهدى الرسول الكريم وأن نعمل بما أمرنا به رب العالمين . ولنا بطاعة الأوامر وبهدى الرسول ، في الماضي القريب نصر مبين ؛ فاللهم إنا نحمدك ونشكرك على الفضل الذي هو منك وإليك ، ونتوب إليك ونستغفرك . . فيارب هي مصر من أمرها رشداً ، واهدنا الصراط المستقيم وطهر أرضها من الخونة ونفوسها من الضعف ، لتستحق النصر الذي وعدت به عبادك المؤمنين . اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونخلص في

طاعتك وتوكل عليك ، ونؤمن بك ونسألك الصواب . ونثني عليك
الخير كله . اللهم اشمل بعنايتك ورضوانك ونوحيك هذه الثورة التي قامت
من أجلك وفي سبيلك وباركها .. فقد قامت لإعلاء كلمتك . اللهم حمداً
لك أن هديتها إلى الجمهورية التي يقوم الحكم فيها بأمر منك . فارحم
ضعفنا بين يديك ، وارحم بقوتك جمهوريتنا ، وهبي شعبها لحكم
الشورى . وارشد كل مصرى وكل مسلم إلى ما فيه الخير والنصر .

اللهم اهدم صرح الدخيل في بلاد المسلمين ، اللهم وحد قلوبنا ،
وانزع الأحقاد من صدورنا . وطهر نفوسنا من رجسها . واربط أرواحنا
وعقولنا بطاعتك . ولا نحملنا ما لا طاقة لنا به . واقبل فينا شفاعة محمد
في يوم الدين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ،
واجعل لنا من إيمان الصحابة والتابعين قدوة . ومن جهادهم مثلاً . ومن
هداهم نوراً يوصلنا إليك .

إلهي إن مصر ترجو أن تجيب سؤالها . وتحقق حريتها . وترد إليها
كرامتها . وتحرز لها النصر . فانصرها على أعدائك وأعدائها . إنك يارب
سميع مجيب .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

هذا النبي يا أهل السماء والأرض نبينا ، وفي اتباعنا إياه عزنا في الدنيا والآخرة ، وسوف نتبعه كما شاء منا أن نتبعه ، وإذا كانت أضاليل المدنية الكاذبة قد حجبت عنا النور زمنًا ، فأتجهنا إلى الضعف والتردد في مجال تكوين شخصيتنا القومية الصريحة الواضحة . فقد انتهى ذلك الضعف والتردد ، وبدأنا نجتاز مرحلة جديدة في تاريخنا ، وسوف تشدنا دائماً أجماد لنا ضاربة في أعماق الزمن ، ونحن في هذه الدوامه الطاغية . نحس بالرغبة الجارحة إلى التوقف ، لنستمع إلى نداء الفجر ، ونتأمل أن الله أكبر ، ونتدبر في سكينه وهدوء ، أين كنا ، وأين نحن ، وفي أى طريق نسير . . يجب أن نحدد الطريق :

لا يمكن أن تفصل قوة بين ما ضينا ومستقبلنا . .

هل تستطيع الأحداث أن تطمس معالم شخصيتنا الضاربة في أعماق التاريخ ؟

إن شخصيتنا العربية الإسلامية هي التي تملئ علينا اقتناء الآثار ، لنمسك بالخيوط من أوله ، فنعرف الأساس الذي سيقوم عليه البناء ، بناء الأمة الواثقة من نفسها ، الواثقة بشخصيتها ، المعترزة بأساسها المؤملة في مستقبلها العزيز .

حينذاك نؤمن ونلمس معنى قول الله عز وجل :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَإَخْشَوْنِ) .

يا أمة الإسلام . . متى عرفنا الطريق . تحددت الشخصية ، وتبين لنا أساس البناء ، وينبغي أن نعرف كيف السبيل إلى البناء . وإلى السلام ، وإلى القوة ، وإلى الحرية . وإلى العدالة ، وإلى المساواة . . إن السبيل واضحة وإن الرسالة محددة . وإن المسؤولية ممتدة . من صاحب الرسالة والرحمة . رسالة نبينا ، والرحمة معنى قرآنا . والرحمة هدف ثورتنا .

ألا فلنسأل عند وضع أى تشريع ، وعند تدبير كل أمر . كيف تتحقق الرحمة عن طريقه أولاً . . فإن كان هذا التشريع أو ذلك الأمر وسيلة إلى الرحمة فهو الحق وهو الرأى ، فلنمض فى الطريق ، وحسبنا أن نمضى إلى أشرف هدف ، ولنطبق غاية الإسلام . . أى الرحمة التى تؤمن بها ونعمل فى سبيلها ما وسعنا العمل ، فالراحمون يرحمهم الرحمن .

إن الإسلام قوامه الشهادة بالتوحيد وقيادة نبي التوحيد . ترفع هذه الشهادة قوائم عتيدة : هى الصلاة والزكاة والصوم والحج . فإن تدبرنا هذه العمد الرواسخ ، وجدنا نصفها للاتصال بالله ونصفها للاتصال بالناس فى سبيل الله ، وكلها من الجلاء والوضوح بحيث لا تطفى صلة على صلة ، ليكون المسلم متوازن العقيدة ، فله حقوق ، وللناس حقوق ، ومن أدى حق الله ولم يؤد حق الناس فلن يقبل منه ، ومن أدى حق الناس وأهمل حق الله فقد أحبط عمله ، ولا مكان له فى قائمة المسلمين .

* * *

نزل جبريل إلى سيدنا محمد وقال له : أتريد يا محمد أن أجعل لك فى مثل جبل أحد ذهباً ؟ فقال : « لا يا رب ، أجوع يوماً فأسألك ، وأشبع يوماً فأحمدك ، اللهم أحيى مسكيناً ، وأميتى مسكيناً ، واحشرنى يوم القيامة فى زمرة المساكين » .

وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من هذا الدعاء في صلواته ، حتى استكثر عليه ذلك تابعه أنس بن مالك ، وقال يا رسول الله هذا جبريل يستأذنك في أن يجعل لك جبل أحد ذهباً ، وقد رفع الله ذكرك ، وشرف قدرك ، وتدعوه أن يحشرك مع المساكين . . لماذا تكثر من هذا الدعاء ؟ فابتسم رسول الله ثم قال : « ألا تعلم يا أنس أن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين » .

اسألوا الله من فضله أن يملأ قلوبكم وقلبي رحمة وعدلاً وإحساناً .

* * *

جاء في الحديث الشريف : [إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته] .

عباد الله إذا أعطاكم الله فحصدوا أموالكم بالزكاة ، فقد كان من قبلكم قوم يعطيهم الله فيمنعون الزكاة . .

كان أبو ثعلبة فقيراً مسكيناً يحافظ على الصلوات الخمس ، يسبق الناس إلى المسجد ، ويقوم على قضاء حوائج الناس ، في سرعة ونشاط ، حتى لقبوه بحمامة المسجد . .

كان لا يصلي إلا خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يعرف يوم يغيب ، فتقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وقال : أريد أن يرزقني الله رزقاً كثيراً بدعوة منك ، وأعاهدك على أن أقوم لله فيه بما يجب . فوهبه الله رزقاً كثيراً وسعة ، فبدأت حماسته

للصلاة تفتر . . لقد شغلته إبله وماشيته فأخذ يحضر الجماعة وقتاً ويتخلف وقتاً ، حتى اكتن بصلاة الجمعة . .
ثم ذهب ولم يعد !

لقد شغلته الدنيا . فسئل فيه رسول الله فابتسم ثم نزلت الآية :

(وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) إلى قوله تعالى: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

هم الأخسرون أعمالاً . منهم : أبو ثعلبة هذا ، صلى وصام لأمر كان يطلبه ، فلما آتاه الله من فضله رفض دعوة النبي إلى دفع الزكاة ، وكثير من الناس منع الزكاة بعد وفاة الرسول ، فجمع أبو بكر رضي الله عنه

الصحابة للتشاور في الحرب . وقال لهم : « والله لو منعوني عقال
بغير مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم فيه » .
فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى
يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فمن قال ما عصم مني ماله ودمه
إلا بحقها وحسابهم على الله » .
فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ،
فالزكاة حق المال .
قال عمر : إنه الرأي . وما رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال ،
حتى عرف أنه الحق .
قال أبو بكر : من ترك شيئاً من الدين وجب قتاله عليه كما لو ترك
الدين كله .

الفصل الخامس

الحرب في سبيل السلام

الحمد لله والصلاة والسلام على من أحبه ربه فاصطفاه . . اصطفاه لعظيم خلقه ، وقوة بأسه ، وثبات عقيدته ، فبعثه برسالته . واختصه بنشر دعوته . وهل دعا محمد إلى غير السلام ؟ . .

من أجل السلام حمل محمد السيف لإقرار السلام وتأمين الأمة . . حمل سيفه للدفاع عن الدعوة ، فكان تجهيشه للجيوش . وكان تسليحه لها بالعقيدة . وكانت غزواته عليه السلام لهدف واحد وغرض واحد هو أن يشيع السلام في الضمير ، والسلام في البيت ، والسلام في المجتمع ، فلم يترك أمة حتى أدى الأمانة وأبلغ الرسالة ، ورضى لنا الإسلام ديناً ، ودعانا لقول الله تعالى : (الْيَوْمَ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) ، وأراد الإسلام بهذه الآية تذكيراً وتحذيراً ، تذكيراً للكافرين بيأسهم من كمال هذا الدين القيم ، وأراد تحذيراً لنا حتى لا نخشاهم بل نخشاه هو وحده . فإن هذه الخشية هي القاعدة الإسلامية الأولى يتحرر بها العبد من كل ما في الدنيا من فتنة وخوف ، ويكون الدين والتسليم خالصاً لله ، وبذلك وضع حجر الأساس في بناء العالم على السلام .

وكان عليه الصلاة والسلام يجهر بختام دعوته هذه . ثم يقول :
ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

نعم لقد أبرأ ذمته بينه وبين خالقه ، ويشهده تعالى ويشهد الناس

على أنه أدى الأمانة وأبلغ الرسالة . فلا نلومن إلا أنفسنا إذا كان فينا ضعف في العقيدة وتحاذل في الإيمان ونقص في الهمة وفتور في العزيمة .
لقد أتى أمر الله فلا تستعجلوه . إذ كان لابد من إعداد العدة ،
وتجنيد الشعب للمعركة . وغرس بذرة التحرير في قلب كل مواطن ،
لتصبح الحرية عقيدة وهدفاً ، ولتكون الحرب المقدسة وسيلة وسبيلاً .
نرحب بالموت العزيز في سبيل الله وفي سبيل الوطن ؛ ومن مات دون
ماله فهو شهيد ، ومن مات دون أرضه فهو شهيد ، ومن مات دون عرضه
فهو شهيد .

وإننا لن نقنع بتحطيم هذا العدو وسحقه حتى يغرب عن بلادنا ،
ولكننا نعلن العالم أجمع أننا نحب السلام ، ونعلم أنه الحق ، ونعمل على
تحقيقه بكل ما أوتينا من قوة — ولو قدر لغاصب محتل أن يجور على حدودنا
أو يغتصب بضعة من جسم بلادنا ، فليكن على بينة من أمره . فإن
كل قرية ستقاتله ، وكل مدينة ستقف في سبيله ، ومن كل شبر في
أرضنا تندلع نار تحرقه ، فإن هذا أمر الله :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

وإنه — سبحانه — لقريب يرى ويسمع أننا إذ نريد الجلاء والسلام ،
لانعتمد على أحد ، ولا نفكر في الجور على أحد ، بل نحن المعتدى
علينا في وطننا ، ونحن المعبذون في أرضنا ، ونحن الذين أريد بنا الذلة —
أريد بنا الذلة ونحن الأعزة — أعزة بحكم الشرع وحكم الدين وحكم المنطق
وحكم التاريخ وحكم القانون السماوي الذي أنزل الإسلام ديناً للسلام .
ولكن هل تتحقق العزة والسيادة بالكلام ؟
وهل يكون الجهاد كلاماً ؟

إن الأمر جد ، والكلام لغو وعيـث . وإن هذه الثورة عمل خالص لوجه الله ، وجهاد صادق في سبيل الله - وهذا العدل يقتضى أن نتسلح بالإيمان ، وأن نتسلح بالاتحاد ، وأن نتحرر من الخوف ، وأن نعمل في نظام حتى نشعر بأننا نتقدم في كل ساعة وفي كل يوم ، فتكون المعركة الفاصلة ، وتكون الضربة القاضية ، ويكون الشعب والجيش هما سبيل الخلاص .

ألا فلندكر جميعاً قول العلي العظيم : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ) ؛ وإن لجان المواطنين من أجل المعركة التي يتدافع الشباب والشيوخ والنساء ألوفاً للانضمام إليها ، لتقيم الدليل القاطع على أن شعب مصر كله قد باع نفسه لله ، فحقق بذلك الشرط الأول وبقى الشرط الثاني ، بقي الجهاد بالمال ، بقي البذل في سبيل الله والوطن ، وما تنفقوا من شيء يوف إليكم وأنتم لا تظلمون .

فيا أهل مصر جميعاً - أجيئوا داعي الله إذا دعاكم لما يحييكم ، وكفانا ما نرى من خسف وهوان للمسلمين ، وضياح لأوطانهم ، وحسبنا فلسطين - هذه الجارة العزيزة الشهيدة التي لم تجد لنفسها قيادة ، وحرمتها هذا المستعمر نفسه من كل توجيه وهداية ، فقد أخذ على نفسه عهداً بأن ينشئ لصهيون وطناً ؛ وإني لأعجب كيف وفى بعهد هذه المرة - ولكنه نفذ العهد وأقام إسرائيل لأن له فيها مصلحة ، وتبدأ هذه المصلحة بأن هذا المستعمر لم يقو على عداة إسرائيل ، وتهدف هذه المصلحة إلى القضاء على وحدة الدول العربية وتماسكها ، هذه الدول التي بدأ فيها الوعي ، وبدأ فيها الشعور بالمسئولية ، وبدأ فيها الشعور بالخطر ، ونبتت فيها بذرة الوحدة الروحية ، فأراد الاستعمار تحطيم هذه الوحدة ،

فسبح هذه الدويلة بأن تقوم ، وهو يعلم فيما بينه وبين نفسه أنها مهما وصلت من قوة فلن ترفع رأسها في وجهه . ولن تهدد مصالحه في الشرق ، ولكن يكفيه أن تبقى هذه الدويلة غصة في الحلق وشوكة في جنب العرب تسهر على قطع صالات الحوار ، وتقضي على روابط العمومة .. وأعجب من ذلك أن هذا العدو قد وجد من ينافسه في ذلك التحجب الرخيص . وهذا التدليل وتلك المساندة لإسرائيل ، حتى أصبحت مركزاً لتنافس المحبين على حساب المسلمين أجمعين .

وإنني لأدهش كل الدهشة حين أذكر أن هذه المساعدة كلها من دول مسيحية كان الأجدر بها أن تكون أكثر حرباً وأكثر عداوة لإسرائيل ، فقد عانت المسيحية من آل صهيون أكثر مما عانى المسلمون .. إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور !

وإذا كنا ننادى في مصر بالتححرر . فإن دعوة التححرر يجب أن ندعو بها لهذه الدول حتى تتحرر من سلطان أفعى صهيون ، فقد استعبدهم باحتكار الأسواق الدولية ، هذا الاحتكار الذي جعل ساسة هذه الدول لا يبرمون أمراً ولا يقطعون برأى إلا بما تقضى به مصلحة إسرائيل ومن ورائها خزائن الصهيونية . . وباضيعه الدول العظمى إذا كانت قد هانت إلى هذا الحد من المادية الدليلة !

إن هذه الثورة . أيها المسلمون ، امتداد لثورة سيدنا محمد ضد الظلم والطغيان على أية صورة ، وهي حرب على الفساد والضعف والاستكانة في كل بلد عربي وفي كل بلد إسلامي .

هكذا قلت في الظهران على شاطئ الخليج العربي ، وقلت هذا على ضفة القنال بعد عودتي من الحج منذ سنوات . . . قلته بإحساس ملايين المسلمين الذين رأينا منهم في مكة نحو ٣ مليون ،

وسمعا منهم أن ثورة مصر لاتقيدها حدود . فهي انتفاضة الإسلام
وانبعاث العروبة ، وهي ربط لهذا الشرق الذي تتابعت
عليه المحن ، لالقوة أعدائه . ولكن لتخاذل أبنائه وتفكك جماعاته ،
وجهل المسلمين بقدر أنفسهم .

لقد ثار النبي بأمر ربه ثورة قوية مؤمنة . على الجاهلية وتقاليدها
وعلى أوضاعها المقلوبة . وعلى أصنامها المعبودة . . وكانت ثورته على
الفساد في كل ميدان ، وكانت رسالته رحمة للبشرية في كل زمان ،
فهدانا إلى عبادة الله وحده ، ونظم حياتنا على قواعد الحق والعدل والحرية
والمساواة .

ثم قال سبحانه لنبيه ورسوله :

(الْيَوْمَ يَنْشَأُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَإِنْ خَشَوْنَ)

جرت عادة الأمم الراغبة في التقدم . أن تبحث لها عن أمة ذات
حضارة ، فتقلدها ، ثم تهضم هذا التقليد في عصبيتها ، ثم تمضي بما
اقتبست وما قلذت في الطريق إلى الأمام .

ولكن الأمة المحمدية قد خرجت على هذه القاعدة . ولم تقبل أن
تتدرج في هذه المراحل ، فإن رسالتها جاءت متحررة ، وكانت
شريعتها لها خاصية ، شريعة لخير أمة أخرجت للناس ، أمة دينها قيم ،
وصراطها مستقيم ، وعقيدتها ربانية ، لاشرقية ولاغربية ، وعنها أخذت
هذه الثورة ، وفي أضواؤها تتقدم مصر الجمهورية العربية المتحدة . .

إننا — أتباع محمد — من هذا النبع نلتمس المدد ، وعلى هدى هذا
للنبي تمضي الثورة ، عاملة بالكتاب والسنة ، واعية لأحكام الله وتعاليمه

المصطفاه . ترى كيف أراد سبحانه أن يدخل الطمأنينة في قلب رسوله ، وبالطمأنينة يدعم ثقته . وثقته إيمانه بالنجاح . نجاح الثورة والدعوة .

قال تعالى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

لذا كان المصطفى يطيل القيام ويطيل السجود ، وكان يطيل التهجد ويطيل البكاء ، بين يدي ربه . . حتى أشفق عليه صحابته ، وسألوه أن يترفق ، فقد فضله الله على خلقه ، وما أنت يا رسول الله بحاجة إلى مزيد من فضله .

فكان يجيبهم بقوله عليه الصلاة والسلام :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟ . .

هل يعنى محمد بهذا السؤال نفسه ؟ . .

وهل كان الخطاب القدسي له وحده ؟

وهل كان الأمر الإلهي لشخصه فحسب ؟

إنه مبعوث للناس كافة ، وجبريل ينزل عليه بالوحي آية بعد آية .

ولكن الوحي انقطع فجأة . وطال انتظار النبي للوحي . وأجمع الكفار على أن رب محمد قد ودَّعه ، وأنه لن يستطيع مواصلة دعوته . .

وحزن الرسول لذلك حزناً شديداً . فقد كان يأتي من قومه العذاب ، ولكنه لم يكثرث بما كان يلاقيه . بل كان حزنه الأليم حرصاً على شرف الوحي وأمانة الرسالة . لا حرصاً على نفسه أو على الدنيا جميعاً . لقد هبأ الله لنبيه امتحاناً يختبر به صبره ويقيس مدى احتماله لأعباء الرسالة . ويزيده ثباتاً في الموقف الصعب .

ثم أقسم له سبحانه بالضحى . أى بالنور . وبالليل أى بالظلام . أنه سبحانه لم يودعه ولم يكرهه . ولم يهجره . فإنما الأعمال بخواتيمها . وللآخرة خير لك من الأولى . وسوف يعطيك ربك فترضى . فاذكرنى يا محمد وأنت تحمى اليتيم . واذكرنى وأنت تجيب السائلين . واذكرنى متحدثاً بنعمتى ، تحقيقاً لآيتي :

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

لماذا لا نتدبر هذه الآيات ؟

إننى أرى فيها الخطة الحكيمة لبناء المجتمع . على أساس التكافل والبر ، والتسليم لله ، والصبر على المكاره . وحاشا لله أن يمن على رسوله ، بأنه كان يتيماً فأكرمه أو كان ضالاً فهداه أو كان عائلاً فأغناه . لم يكن هذا مناً ولكن الله جلت مشيئته ، أراد أن يضع لنا دستوراً عملياً في الرحمة ، الرحمة الشاملة التى يجب أن نحيط بها اليتيم ومن فى حكمه ، والفقير ومن يعول . . ولا سبيل إلى تجاهل هذه الأوامر الإلهية ، فإن الله لا يرضى أن ننسى مسئوليتنا فى هذه الأمة . ولا يسمح لنا بأن نغفل عن التحدث بنعمته لحظة واحدة .

فإن أردتم مزيداً من النور . فدونكم تنظيم شريعتكم لعلاقات الخلق ، ووضوح الواجب والحق ، بين أفراد الأسرة ، وبين سائر الأمة . لقد جعلت هذه الشريعة أساس عبادة الله التعاون والتراحم ،

وأوضحت مسئولية الفرد في عتق الجماعة . وأن الفرد مع الجماعة تأخذ منه وتعطيه ، وتحميه وتحمي فيه . وأقامت رسالة محمد بناءها على قاعدتي : الإيمان والإحسان . وأعلنت أن الله لا يكفيه من عبده المخلص صلاة ونسك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وحكمته في ذلك أن ينصرف الناس بعد العبادة لمسئولياتهم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فعليهم أن يصونوا أمانة الحياة ، بالعسل المنتج كأفراد ، فتنهض الأمة كمجموعة ، وتشتد سواعدها قوة . ويتوافر لها من الوعي ما يمنع من احتكار النعمة ، فلا تكون وقفاً على الأغنياء . ويكون لهذه الأمة من مقومات الشخصية ما يمنع فرعون وأمثاله من ادعاء الألوهية . مستنداً إلى جاهه وراثته وأجناده ، وإلجاءه لله . وهو أغنى وأعظم ، وجنده دائماً هم الغالبون .

ألا إن الله قد أنعم على الأغنياء بالمال . وأقام الفقراء على هذه الحال ، ثم يقول سبحانه في حديث قدسي :
[الفقراء عيال والأغنياء وكلائي . ولا أحب أن يستبد وكلائي بعيالي] .

وكان الحديث القدسي من مرادفات بعض معاني الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَسْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَلَوْ قُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) .

فالمسلم الصادق يحب لأخيه ما يحب لنفسه . والمسلم الصادق لا يخطر بباله أن يتميز على خادمه . والمسلم الصادق مسئول عن المسلمين جميعاً . والمسلم الصادق لا يكسل ولا يتعطل بل يكدح ويعمل ، فإذا عاقه حائل فالوطن كله في عونته ، يؤمنه ، ويتواصى به خيراً ، والدولة تبذل له ما يحفظ عليه كرامته وعزته ، فلا فضل اليوم لأحد على أحد . فهذا بلدنا جميعاً ، وما الذي أعطى عن سعة . بأفضل أجراً ممن أخذ عن حاجة . وإذا أردتم أن تعرفوا المثل الأعلى لقادة ثورتكم ، فإني أرجو أن تذكروا معي كيف بعث محمد النبي الأمي في أمة متفرقة تقتلها الحروب والأحقاد والضغائن في أرض صحراء جرداء ، ولكنه استطاع أن يجمع شمل أمته . وأن يبني منها أمة قوية متماسكة كان لها النصر . وكانت لها السيادة بقوة الإيمان وعظمة الجهاد ، هذا مثل الجماعة . أما مثل الفرد ففي الرسول نفسه ، لقد كان أمياً ، وكان فقيراً ، وكان يتيماً ، وهذه كلها لو تجمعت في فرد لما كان له أي أمل في أي نجاح . ولكنه عليه الصلاة والسلام كان مثلاً في الصبر والكفاح وقوة الاحتمال . ونذكر الآن قوله لعنه أبي طالب وهو يذكر له ما يتوعده به الكافرون . . قال صلوات الله وسلامه عليه : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

يجب أن نقف على هذه التعاليم التي اتبعها السلف الصالح ، فكان لهم العز ، وكان النصر حليفهم . ولن يتيسر لنا ذلك إلا إذا عرف كل منا واجبه نحو ربه فأداه . إنها الصلاة التي تصل بين العبد وربّه ، وتصل قلب المؤمن بالمؤمن وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

إني أدعو لأن يحاسب كل منا نفسه آخر يومه ، فيم أنفق هذا اليوم ؟ وأي خدمة أداها لوطنه ؟ فإذا استطعنا هذا أمكننا أن نكون قوة مؤمنة تستحق النصر والحرية .

الفصل السادس

الإسلام يَأْتِي السِّلْبِيَّةَ

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،
فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع
فبقلبه ، وذلك أضعف الأيمان »

[حديث شريف]

عندما نقول إن الإسلام يَأْتِي السِّلْبِيَّةَ فذلك يعنى أننا نشعر بحساسية
مرهفة لإزاء اتهام باطل موجه إلى الإسلام ، فنقف لندافع عنه .
وفى موقف الدفاع ، يفقد الإنسان قوة المبادأة ، وينتظر دائماً الهجوم ،
ثم يقف دائماً موقف الدفاع ، مستشعراً ضعفاً لا يحسه إلا ضعيف .
فإذا نحن آمننا بالإسلام حق الإيمان ، وإذا نحن آمننا بقوة مبادئ هذا
الدين القيم ، وإذا نحن عشنا الحياة الإسلامية الصحيحة بكل ما فيها من قيم
إنسانية خالدة ، فسنقف دائماً موقف القوة ، ويجد الذين يتقولون على
الإسلام أنفسهم فى موقف الدفاع وعندما تعود إلينا قوة المبادأة . .
هذه القوة التى فقدناها فى غفلة من الزمن حين قامت الصناعة فى الغرب ،
وحين تمكن الغرب من الشرق ، وتسلسل إلى أرضنا من خلال ضعف
العقيدة والتحلل من الدين ، والغرور بالحياة الدنيا .

إننا حين نؤمن بهذا الدين المتين ، ونزن بفطنة العرب إمكانيات
هذه المنطقة . ثم نعمل على تصنيعها بقوة مبادئنا يوم ندرك هذا فتأكدوا
أن القوة المادية والقوة الروحية الكامنة فى هذه البقعة ، سوف تضعف بجانبها

كل قوة ، ثم تعود عجلة الزمن إلى دورتها الطبيعية . وتعود إلى هذه الأمة وحدها ، وتستأنف رسالتها في هداية البشرية إلى أعز حياة ، وعندها لا يتقول عنا الصهاينة وغيرهم من أعداء ديننا الكفار والمشركين حينما يتهمون المسلمين بأنهم قوم سلبيون أو متواكلون أو متخلفون ، أو كل هذا جميعاً .

إن من يقف موقف المدافع ، إنما يحاول دائماً تبرير موقفه إزاء تهجم الآخرين ، وعليه بهذا الوضع أن يتقبل اللوم أو يتعرض للهجوم ، وهو في منطقته دائماً ضعيف . وما يقوله الضعيف لا يسمعه أحد . أما حديث الأقوياء ، أما حديث المؤمنين ، أما حديث العاملين المخلصين ، فهو نجد دائماً الأذن الصاغية . وهذه مصر الجمهورية العربية المتحدة ، قد أخذت بقوة المبادأة ، وملكتم زمام القوة المادية مرتبطة بالقوة الروحية ، فأصبحت كلمتها تنطلق من القاهرة فتجد العالم كله آذاناً صاغية .

ولقد حاولنا كثيراً في الماضي أن ندافع عن عناصر القوة والحق في الإسلام ، وكان المدافع يلتمس أن يصدقه الآخرون ، وهو يدعو إلى دين إيجابى يقول فيه أعداؤه إنه دين سلبى .

وإننى لأذكر في هذا المقام أن العلامة جمال الدين الأفغانى عندما نذى من مصر إلى تركيا . بسبب دعوته القوية المؤمنة إلى هذا الدين المتين . . أذكر أنه عندما قابل السلطان عبد الحميد — خليفة المسلمين في ذلك الحين — وقد استشعر السلطان في نفسه خيفة منه ، وخشى أن يقول العالم الأفغانى قولة حق في حكم السلطان المتداعى ، قال السلطان للعالم :

لماذا يا شيخنا لاتذهب إلى اليابان مثلاً لتدعوا أهلها إلى الإسلام ، والقوم هناك يبحثون عن دين ؟

فأجاب العالم الناصر بقوله :

هل أذهب إلى اليابان أدعو أهلها إلى الإسلام كما يجب أن يكون ،
أو أدعوهم إلى الإسلام الذي يطبق في البلاد الإسلامية ؟
فجيب السلطان لهذا السؤال ثم قال :

حدثني يا شيخنا عن الفرق . . حدثني عن العلاقة بين هذا القول
وبين دعوة أهل اليابان إلى الإسلام .
فأجاب الأفغانى قائلا :

لو دعوتهم إلى الإسلام كما يجب أن يكون ، فسوف يقولون اذهب
يا رجل وادع قومك إلى هذه المبادئ ، فإن اتبعوك فتعال وادعنا إلى هذا
الدين . . وإذا أنا دعوتهم إلى الإسلام المطبق في بلادنا قالوا إنهم في غير
ما حاجة إلى هذا الدين ، وخير لهم أن يبقوا كما هم . . بغير دين ! .
وإننى لأتساءل الآن . . لماذا قال الأفغانى هذا القول في ذلك الحين ؟
لقد كان العالم الناصر يترجم عن واقع المسلمين ، وعن حال التطبيق
لمبادئ الإسلام ، وما انتهت إليه في عهد خلافة السلطان عبد الحميد . .
عندما بدأت الخلافة الإسلامية تنحدر إلى الهوان ، وتسير من سى إلى
أسوأ ، حين أفلح الغرب في زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ، وحين
سلط الغرب عليهم الشهوات . . بعدها خارت العزائم ، فخفضت صوت
المسلمين ومن ذا الذى يستمع إلى ضعيف ؟ . .
من هنا نبدأ الحديث . .

أنت حين تكون حرّاً عزيزاً ، ثم تدعو إلى الحرية والعزة . . وحين
تكون قوياً ثم تدعو إلى القوة . . سوف يسعى الناس إلى سماعك ،
ويفتحون قلوبهم لدعوتك . لا تحاول أبداً أن تدعو إلى حق وعدل وقوة
وعزة ، وأنت تعيش الباطل وتتجرع الظلم ضعيفاً ذليلاً . . إن ذلك تناقض
ليس بعده تناقض . . .

فإذا قلت إن الإسلام يأبى السلبية . فلست أقف موقف المدافع .
 فإن إيجابية الإسلام أقوى من كل دفاع ، وقد أظهره الله على الدين كله ،
 وحسبه أنه الدين عند الله ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه . ويوم
 يغلب أتباعه على أمرهم ، فليس هذا سلبية في الإسلام ، وإنما هي
 سلبية في المسلمين ، تداعت عليهم الأمم ، وهانوا على أنفسهم ، وهانوا
 على الناس ، لأنهم غفلوا عن إيجابية دينهم ، واتبعوا ساداتهم وكبراءهم ،
 فأضلّوهم السبيل . . وإلا فكيف يغلب قوم نزلت فيهم وعليهم الآية
 الكريمة :

(الْيَوْمَ يَثِّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) .

إنى أتحدث عن تفاصيل إيجابية الإسلام . . هذه الإيجابية الكاملة
 الشاملة التي كانت وستظل سببا في وجود أعداء للإسلام .
 لقد كان للإسلام دائما أعداء في العلانية ، وكان كفيلا بهم .
 فقام أجدادكم في صدر الرسالة ينشرون النور ، ولم يقبح الإسلام في
 الجزيرة العربية ، ولكنه انطلق على الخط العريض من الصين حتى
 فرنسا ، فهل هناك حقيقة أروع للدعوة الإيجابية من هذه الحقيقة الخالدة ؟
 من قال إن الإسلام كان أو سيكون سلبيا في أى زمان وفي أى
 مكان ؟

إنه الدين الوحيد المنزل لهداية البشر كافة ، وبناء حياة الإنسان
 على الإيمان والعمل . إنه لا يرضى بالإيمان وحده ، فما من آية نزلت
 في القرآن الكريم داعية إلى الإيمان إلا كان العمل ، والعمل الصالح
 بالذات ، مرادفاً في اللفظ والمعنى للإيمان ، وحسب الإسلام إيجابية أنه
 لا رهبانية فيه ، وأن العمل في شريعة محمد عبادة . وأن فلسفة الثورة
 الإسلامية على البطالة والتواكل قد اتخذت شعارها من الآية الكريمة :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) .

ومن قوله تعالى في الحديث القدسي : [عبيدي حرك يدك أرزقك] .
وقوله صلوات الله عليه : « ما أكل أحد طعاماً أفضل من عمل يده » .

وفي القرآن ، وفي الحديث ، كثير من الحض على العمل ، والتنفير من الكسل ، والتحريض على الكفاح . . . والجهد . . . والعرق .
ثم يرحم الله عبداً نام ويداه كالتان من التعب كما يقول نبينا ، نبي العمل .

كيف يكون الإسلام ديناً سليباً ، وهو الذي وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؟

إن الإسلام لو ترك أهله على إيمانهم فقط لما تجاوز هذا الدين حدود البقعة التي نزل فيها ، ولكنه انطلق كما أنزل في المعمورة كلها ، فدخل الناس فيه أفواجا ، لأنهم وجدوه دين إيمان وعمل .

وتحضرني الآن عبارة قالها الكاتب الإيرلندي برناردشو : « لقد وضعت دين محمد دائماً موضع التقدير والإجلال ، فإنه أفضل دين متطور قادر على هضم جميع المذنيات ، وهو الدين الوحيد الذي ساوى بين الناس . إنني أرى كثيراً من بني وطني يدخلون هذا الدين ، وأرى أوربا داخلة في هذا الدين ، شاعت أولم تشأ . فما أحوج العالم اليوم إلى رجل في مثل شخصية محمد ، لينقذه من الحرب ، ويغذيه بالإيمان ، ويحييه بالعمل ، وينصفه بالعدل ، ويبدل خوفه أمناً ، ولا يفرق بين الأبيض والأسود ، ويجعل الفرصة المتكافئة أساساً للحياة » .

أية سلبية يمكن أن تلحق بمثل هذا الدين ؟

إن الفيلسوف الإيرلندي قد تحدث عن إيجابية الإسلام أفضل مما يتحدث علماء المسلمين . . لقد كشفت بصيرة هذا الكاتب عن جوهر الإسلام ، فاعترف . . ثم تمنى أن يوجد رجل يقتدى بمحمد ، لينشر السلام ، والإيمان ، والعمل ، والعدل ، والمساواة بين الناس ، وأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم .

« بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » . . أى ظهر الإسلام على كل دين قوياً سريع الانتشار بالحق والعدل والمساواة والخير ، ليس بالسيف كما يدعون ، وكانت إيجابيته التي أذهلت العالم سبباً في وجود أعداء لهذا الدين في العلن والسر . أما الذين ناصبوا هذا الدين العداء علانية ، فقد تصدى لهم الأجداد شرقاً وغرباً حتى رفعوا راية التوحيد في المنطقة الممتدة من الصين حتى فرنسا . عندما كانت إيجابية المؤمنين قائمة على جوهر هذا الدين ، فأعطاهم القدرة على المبادأة ، أمدهم الله بنصر من عنده . فدخل الناس في دين الله أفواجا .

أما أعداء الإسلام في السر ، وهم الذين يحاربون الإسلام من وراء جدر ، فهم الذين يعنيه القرآن الكريم بقول الله تعالى :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) .

هؤلاء هم الذين كانوا ولا يزالون يعملون في الظلام لهدم هذا الدين ، فقد سعوا سعيهم إلى اختلاق أحاديث الرسول العربي الأمين ، وعمدوا إلى تأويل التفاسير إلى المعاني التي تسيء إلى جوهر الإسلام . إنهم لا يعلمون عمق الحكمة الربانية في القول الحكيم :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

ولكنهم ظلوا في غيهم :

(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَبْغِي اللَّهُ إِلَّا أَن)

يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ما هي الإسرائيليات التي أضيفت إلى معاني القرآن ؟ وما هي الدسائس الفكرية التي أدخلت على التفاسير فأشاعوا عن الإسلام ... دين العمل والجهاد والتقدم والرحمة والنور - أنه دين سلبى ، والله من ورائهم محيط ، ويوجه إليهم القول الحكيم :

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي لَشَدِيدٌ) .

إن هذه الحرب الخفية هي التي جعلتنا نأثى اليوم لنقدم البراهين التي تنفي عن الإسلام السلبية ، وهو الدين الوحيد الذي جمع كل الأديان ، وتميز عليها بأنه دين الله الذي أراده رحمة للبشرية ، فذل للناس كافة ، وذلك أعلى مثل في الإيجابية .

ويكفى أن نعلم قبل ذلك ، أو بعد ذلك أن « لارهبانية في الإسلام » فالإسلام الذي يقدم السعى في طلب الرزق على الصلاة والصوم ليس ديناً سلبياً .

والإسلام الذي يبدأ بحرية الفكر وحرية العقيدة ليس ديناً سلبياً .
والإسلام الذي ينادى بالعزة لله ورسوله والمؤمنين ليس ديناً سلبياً .
فالعزة لا يمكن أن تكون للسلبيين ، لأنها لا تقوم إلا بالقوة والعمل والحرية والذود عن شرف الوطن وكرامة المجتمع الإسلامى ، ليكون مجتمع الأمة التي كرمها الله بقوله الحكيم :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

هذا الدين الذى يقول نبيه العربى الأمين : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ليس ديناً سلبياً .

ثم يقول الرسول الكريم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . . فماذا فى ذلك من سلبية ؟

هذا الدين قد خلق أمة من العدم ، ورفع رايها فوق الأمم ، وجعل المستضعفين أئمة ، يوم سادوا بمبادئهم الأرض . ولم تكن سيادة العرب — كما قدمنا — بحد السيف ، أو بالجيوش والقنابل الذرية ، وإنما كانت سيادة تقوم على مبادئ ، وعلى أخلاق ، تلزم كل فرد بمسئوليته الأولى عن العمل بهذه المبادئ ، والسلوك على نهج هذه الأخلاق ، بعد أن يدر به الله سبحانه على طريقته وبأسلوبه ، فيصبح قوة تشعر بالمسئولية ، وتحس اليقين ، وتؤمن بالله ورسوله ، وتعمل بما أمر به الله ، وما أمر الله رسوله إلا بأن يكون رحمة للناس كافة . . لم يقل للمسلمين فقط ، وإنما جعل الرحمة شاملة كل إنسان ، فأين السلبية فى رسالة أشرف المرسلين ؟

ونحن فى مجال الرسالة ، أيها العرب ، يجب أن نسأل أنفسنا أسئلة بسيطة سهلة : ما جوهر هذه الرسالة ؟ .. ما هى أهدافها القريبة والبعيدة ؟ .. ومن الأجوبة البسيطة أيضاً نستطيع التعرف على إيجابية الإسلام .

إن بنى إسرائيل ، قاتلهم الله ، قد حاولوا أن يبدسوا على الإسلام مبادئ التواكل ، وهم يجهلون قوله تعالى :

(وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ

يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى) .

ولكن محاولاتهم لم تستطع أن تفت في عضدنا ، ولم تستطع أن تشيع الانحلال بين الشعوب الإسلامية ، التي آمنت بدين الحق والقوة والحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية معاً .

وفي مناسبة الأسئلة البسيطة والأجوبة البسيطة أذكر حديثاً لعمر ابن الخطاب يقول :

كنا جلوساً في حضرة النبي الكريم ، فأقبل رجل وجهه أشد بياضاً من اللبن ، وشعره أشد سواداً من الليل ، يرتدى ثوباً ناصع البياض ، وجلس أمام النبي ، حتى التصقت ركبتهما وسأله : ما الإسلام يا محمد ؟

قال عليه الصلاة والسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن تؤدي الصلاة والزكاة ، وأن تصوم رمضان ، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

قال الرجل : صدقت يا محمد ، وما هو الإحسان ؟
فأجاب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .
قال : صدقت يا محمد .

قال عمر : وانصرف الرجل ، ونحن نعجب للسائل المصدق ، فقال لي رسول الله : أتعلم من هذا يا عمر ؟ . . قلت : الله ورسوله أعلم .
قال : هذا جبريل جاءكم يعلمكم أمور دينكم .

يجب أن نذكر هذه التعاليم وأمثالها ، لنعرف ما الإسلام ، وما الإحسان ؟ وما الطريق إلى أن أعبد الله كأنني أراه ، فإن لم أكن أراه فهو يراني ؟

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهو دستور الإسلام الذي لا تبديل فيه ، فنضعه أمامه ساربه إلى عز الدارين ، ومن تركه

ألقى نفسه في النار ، ذلك لأنه دين يحمل مبادئ العزة والكرامة والعدل والرحمة والمساواة ، وهي مبادئ لا يمكن تحقيقها غيبياً ، وإنما هي عين الإيجابية ، وطريق الإيمان والعمل .

يجب أن نعرف الغرض الحقيقي من دعوة الإسلام .. أهى دعوة إلى التعصب ؟

لا إنه دين الرحمة للبشرية جميعاً .
أهى دعوة لسيادة مخلوق على مخلوق ؟ ..

أبداً . إن العبودية لله وحده ولا شريك له . إنه في المجال العالمى — ذلك المجال المضطرب لأنه لم يسلم كله بعد — يقول الإسلام في دستوره الأعلى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

وليس أغناكم ، وليس أقواكم ، وليس أكثركم تسليحاً بالذرة .
إنه دين السلام الحقيقى .. دين حرية الفرد ، وحرية الفكر ، ولا يقبل مطلقاً أن يفرض إنسان رأيه على إنسان ، فقد كفل لكل مخلوق حرية وكرامته ووجوده .

يجب أن نعرف أن التربية الأساسية الحقيقية هي التربية الإسلامية ، التربية التى تجعل من كل فرد إنساناً لا يمكن أن يتحول عن عقيدته ، لأنه آمن بمبادئ وقيم لا يمكن لأى مبدأ أو قانون بشرى أن يرتقى إليها كائنة ما كانت هذه المبادئ أو تلك القوانين ، مستوردة من هنا أو من هناك .. فإذا عرفتم أننا لا يمكن أن نهزم أبداً إذا نشأنا على تربية إسلامية ، فإننا لا يمكن أن نخشى على الفرد المسلم ولو كان في عقر دار أولئك الذين

يقولون على الإسلام . . ولكن الذى نخافه هو مصير المنحرفين الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، والذين يستعدون أعداء الإسلام على المساسين . أما الذين تربوا ونشأوا على المبادئ العليا ، فلا يمكن أن يخشى عليهم .

فليكن من واجبنا إذن أن نبني كما بنى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بناء لم يقم على رمال ، وإنما قام على أساس قوى متين ، لا ينفذ إليه الباطل ، ولا يرتقى الشك إلى قوته ، بناء قال فيه سبحانه وتعالى :

(الْيَوْمَ يَتَيْسَّرُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) .

ثم قال جلت حكمته :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) .

قال النبي هذه الآية الكريمة فى حجة الوداع ، ثم سأل أتباعه المؤمنين فى عرفة : ألا هل بلغت ؟ . . قالوا : نعم ، يا رسول الله . قال اللهم فاشهد ، وكررها النبي ثلاثاً ، ثم قال بعد الثلاث : ألا فليبلغ الحاضر منكم الغائب .

وهكذا أشهد النبي علينا الله ، وأشهد الملائكة ، وترك لنا أمانة الدعوة إلى هذا الدين القيم ، حتى ينهى هذا العالم .

تصوروا هذه الرسالة ، وهذه الدعوة ، وهذه الأمانة ، وهذه التربية الأساسية الحقيقية للمجتمع الإسلامى الذى يجب أن يستأنف حياة الآباء والأجداد ، إنكم لن تجدوا فى ذلك كله أو بعضه أقل القليل من السلبية . مرة أخرى أؤكد لكم أنى لن أخشى على ابنى ما دمت أنشئه

على مبادئ الإسلام . . فإن من يريد أن يحوله عن عقيدته لا بد أن يأتي له بمبادئ أقوى من مبادئ الإسلام . . وهيهات !
 حاشا لله أن تكون على أرضه مبادئ أقوى من دينه ولا أحكم من رسالته التي أنزلها رحمة للعالمين .

ماذا يريد الإسلام ؟

كيف نستطيع أن نلمس أن الإسلام هو التربية الإنسانية المثلى للفرد ، والمجتمع ، والأمة . . والعالم أجمع ؟
 إن الإسلام يريد شيئاً واحداً ، هو الرحمة بكل هؤلاء ، لأن الله قد اختار لنفسه صفة الرحمن الرحيم . . واهب الرحمة لكل قلب ، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء ، وهو الذي يربط بينه تعالى وبين عباده القائلين :

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) .

فبغير رحمتك يا رحمن سنضل الطريق . . نعم ، فهذه الرحمة متى دخلت إلى قلب الإنسان عرف الطريق وكما أن الرحمة مصدر النور . . . هي في الوقت نفسه مصدر القوة ، فالرحمة لاتصدر إلا من القوى . . . والعاجز الضعيف هو الذي يستحق الرحمة ، وهو الذي نزلت من أجله رحمة الرحمن .

وإننا حين نبدأ كل عمل باسم الله ، لا يغيب عن بالنا أن الله قد بدأ باسمه كل سورة من كتابه الأعظم ، ولم تحرم سورة من البدء باسم الله سوى سورة التوبة ، لأنها نزلت حرباً على المشركين والمنافقين والمفسدين في الأرض فأولئك لا يستحقون الرحمة : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ

يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا
أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا
مِنَ الْأَرْضِ .

والآن ، تعالوا بنا نبحث كيف تحقق التربية الإسلامية الرحمة
بالفرد والمجتمع والبشرية . .

إننى لن أتكلم فى التفاصيل فجهاها لا يحد ، ولكننا ستحدث فى
الإطار العام ، فى الفلسفة والمبادئ . . والخطوط العريضة فى أركان
الإسلام . . فهى مصابيح على الطريق إلى التفاصيل

قد يثير بعض الناس مسائل جانبية فى الموضوع كالزواج بأربع
أو الطلاق ولماذا يباح وهو يؤدى إلى ما لا تحمد بعاقباه ؟ . . إلى غير
ذلك من المسائل التى لا يثيرها سوى الذين لا يعرفون الهدف الأعلى من
التربية الإسلامية .

إنهم يحاولون زعزعة العقيدة فى هذه الرسالة البناءة الإيجابية القوية ،
ويحاولون تلفيق مظهر سلبى للإسلام ، حتى هذا المظهر يدل على أنهم
لا بصيرة لهم ، وأنهم يجهلون حقيقة المبدأ كما أنزل .

ومن الناس من فسر الإيمان بأن الموت حق ، وأن يغفو عن كثير ،
وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فسر ذلك بأنه التواكل ، وأن المسلمين
يقولون دائماً « كله على الله » . . هؤلاء الناس يفهمون الإسلام فهماً
خاطئاً ، وليس الإسلام هنا هو المخطئ ، ولكن الإنسان هو الذى خرج
على العقيدة السليمة .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

فإذا تغير ما بأنفسهم ، عرفوا أن إيماني بأن الموت حق ، يدفعني إلى الشجاعة والإقدام ، يدفعني إلى العدو فلا أبالي ، لأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . ليس معنى ذلك أن أمشي إلى العدو بلا سلاح . وأقول إن الله سيقويني على لقاء العدو ، كهؤلاء الإخوة الذين ذهبوا إلى لقاء الدبابات الإسرائيلية في فلسطين عام ١٩٤٨ بالعصى . . إن علينا أن نرجع أولاً إلى قوله تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) .

وذكرى هنا أنه تعالى ينظم لقاء الأعداء بأن ترهبهم . . وبعد ذلك نهجم عليهم ونتقدم إلى صفرهم ونحن مؤمنون بأن الله لن يكتب لنا إلا إحدى الحسنيين : الجنة بالشهادة أو الفوز بالنصر ، فأين السابية في ذلك يا قوم ؟

ليس هناك في الدنيا إيجابية أقوى ولا أروع من هذه الإيجابية . . فإن كان هناك من يهمل معاني وأهداف دينه القويم من المسلمين ، فليس ذلك ذنب الدين . فالإسلام دين كامل ، يثس الكافرون من مقاومته أو الحد من انتشاره ، لأنه دين رحمة في أوله وفي أوسطه وفي آخره . . كذلك حددت الآية الشريفة الموجهة إلى نبي الرحمة في قول الله الرحيم الرحمن :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

ثم انظروا معي إلى قوله تعالى :

«لَا يَلَاF قُرَيْشٍ إِلَّا فِهمْ ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ،

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ
مِنْ خَوْفٍ .

انظروا الإيجابية في هذه السورة القصيرة التي تعد أبلغ وأعرق دستور
لتحرير الفرد والمجتمع من الخوف ومن الحاجة ، ولتحقيق الألفة في
السعي والعمل ، ثم لعبادة رب الكعبة الذي ألف بين قلوبهم ونظم
عملهم الجماعي ، وأمرهم بعبادته لأنه سبحانه قد أطعمهم من جوع
وآمَنهم من خوف .

ومن أجل ذلك قامت ثورتنا . . وكثيراً ما سمعتم على لسان المغفور
له الرئيس جمال عبد الناصر :

« إن تحرير لقمة العيش هدف سياسي من أهداف ثورتنا ، فتحرير
لقمة العيش من المهانة والمرارة . . هو الأساس لبناء فرد متحرر ومجتمع
متحرر . . وشعوب حرة من كل ضغط ، ومن كل عذاب ، ومن كل
استغلال »

العملية كلها تبدأ بحرية الفرد . . وكل شيء يبدأ بالإنسان .
وهذا يذكرني بعمل إيجابي شرعته الثورة في قوانينها لتحرير لقمة
العيش ، وهو منع الفصل التعسفي للعمال .

وقلنا إنه يجب أن يكون مفهوماً أن حماية العامل من الفصل التعسفي
ليس تحدياً لإرادة صاحب العمل ، ولا يمكن أن يكون باباً يدخل منه
التهاون والإهمال إلى سلوك العامل . . وإنما هو تأمين له على مصدر
رزقه ، وتحرير لقمة عيشه ، حتى لا يصبح العوبة في يد انتهازى
أو مستغل . . فإن تحرير لقمة العيش هو أصل الحرية ، والإنسان العبد
لا يمكن الاعتماد عليه ، ولا يمكن أن نبني من أمثاله مجتمعاً ذا قيمة
أو وزن فثل هذا العبد لم تتحقق الرحمة في حياته . . ومجتمع يتكون

منه! لا يمكن أن يكون رحيماً أو متراحماً أو قوياً أو متأسكاً .
ولنرجع البصر كرتين إلى الأمر الإلهي لكل إنسان بأن يحرر نفسه
عندما ينطق الإنسان المسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، أي أنه لا يعترف
بإله غير الله ولا يشرك به أحداً ، فليس معنى الشرك هنا هو فقط الزعم
بأن الله ثالث ثلاثة ، وإنما يعنى أولاً الإيمان بأنه ليست هناك قوة يمكن
أن تنال مني إلا بما قدر الله . . فلا سيد لي إلا الله . . ولا عبودية لمخلوق
مهما كان هذا المخلوق . لا إله إلا الله . . إنني بها أشهد بحريتي . .
وإنني لن أكون حراً إلا بالسيادة لله وحده ، ومن هذه السيادة أستطيع أن
أكون سيدي ، وأن أكون حراً ، وأن أكون قوياً . وأن أعى قول الرسول
الكريم : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

إننا من نسل آدم الذي سجدت له الملائكة . . وإن الله قد كرم
بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات . . وجعل آدم
خليفة في أرضه ، وكرم أبنائه وأمرهم بطاعته ، وأوضح لهم عز هذه الطاعة
في الحديث القدسي الشريف : « عبادي أطعني تكن عباداً ربانياً تقول
للشيء كن فيكون » .

وحسب المسلم إيجابية أن يكون من أمة لا إله إلا الله ، محمد رسول
الله . . ثم يبني حياته على هذه القاعدة . .

ولكن كيف نبنيها ؟

إن ديننا أساسه الإيجابية مهما حاول أعداء الإسلام القول على مبادئه ،
وتحريف الكلم عن مواضعه ، وننتقل الآن إلى طريقة الإسلام في بناء
الفرد على أمتن قواعد الإيجابية .

هناك أسلوبان للتفكير : أسلوب من يتعجل النتائج كيفما تكن . .
وأسلوب من يتعجل النتائج ، ولكنه يريد البناء على قاعدة وطيدة وأساس
مكن ، حتى يضمن في النهاية النجاح الحقيقي .

بالنسبة لمن يتعجلون النتائج كيفما تكن تجدهم يرون في البداية الطبيعية ودون الطفرة - سنة الحياة التطور والتدرج - استغراقاً لوقت طويل . فهم في هفتهم على الإسراع في البناء لا يؤمنون بالتدرج إلا في مجال الحديث العابر ، فهم يتكلمون عن بناء الإنسان بطريقة لا تسمح للتربية والتكوين بفرصة الإصرار على البحث . وإصرار على العمل ، وتدير محكم ومتابعة مستمرة . . مهما طال الوقت ومهما طال الزمن فإن كل ما نراه من أبنية ضخمة هي في الأصل مجموعة لبنات ، وكل ما نرى من أعمال ضخمة وفي الأصل مجهود أفراد ، وإن بناء الفرد هو الصعب العسير .

بناء الفرد هو العمل الوحيد الذي لا يحسب بالسنين ولكنه يحسب بالأجيال . . لا بد أن ينقضي جيل حتى نتأكد من أن روح الثورة ، وروح الإصلاح ، وروح التغيير إلى أفضل . . قد وجدت المجال والمناخ الطبيعي لتثبيت مبادئها وقيمها .

وها نحن أولاء نرى قصة بني إسرائيل مع سيدنا موسى - عليه السلام - لقد تطلب الأمر أن ينقضي جيل بعقليته وتفكيره . . تطلب الأمر أن تمضي ٤٠ سنة كاملة وهم مقيدون بعقلياتهم الوثنية والعجل الذهبي الذي صنعوه ثم عبدوه . . وما يزالون .

ومن قبل موسى نتأمل قصة سيدنا نوح ، وكيف مكث في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، فلم يستجب منهم سوى خمسين فرداً ، حتى استغاث من الكفر ، ونادى ربه :

(رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) فكان الطوفان .

وكذلك كان الإسلام غريباً في مكة . . لقد انقضى على الرسالة ٢٣ عاماً حتى انتصرت دعوة الحق في منزلها الأول ، بعد أن اقتلعت الضلال من الجذور ، ومن الماضي الرهيب . . ثم كان البناء قوياً

ثأراً مندفعاً متجدداً . . . وكان لابد أن يبنى الإسلام الفرد أول ما يبنى .
ونحن لكي ننشئ الفرد على أسس ومبادئ لا بد أن نتعرف على
الأسلوب الأصيل في صورته المبسطة التي أراد الله أن تكون أسلوباً
خاصاً بنا حتى لا نجهد أنفسنا بالاختراع أو الاختلاق . . . فالإسلام لا يبنى
في فراغ .

إننا نرى الشجرة الصغيرة تنمو وحدها في مهب الرياح ، فتكون
عرضة لأن تنشأ معوجة ثم تكبر كذلك . . . ولهذا فإننا في مراحل قيامها
ونموها نلجأ إلى جريدة نخل أو قطعة من خشب ، لتقوية الشجرة
ومساندتها حتى يشتد عودها على الاستقامة ، فتصبح في غنى عن الدعامة
أو المساندة . . . وتضحى قادرة على مواجهة الرياح الهوج شامخة صامدة ،
تستطيع في المستقبل أن تعطينا الدعائم لكي تسند غيرها من الشجيرات
من الجيل الصاعد .

وهكذا درج الإسلام بأسلوبه الفطري في بناء الفرد ، فقد أعد له
الدعائم القوية الثابتة على الاستقامة حتى يشتد عوده وتصبح الاستقامة
جزءاً لا يتجزأ من حياته . . . ومن طبيعته . . . ومن غريزته .

أولى هذه الدعائم الصلاة :

ويقفز إلى ذهني في هذه اللحظات حديث جرى بيني وبين أحد
أولئك الذين لا يكتفون بعدم الصلاة . . . وإنما يناقشون على الملأ تبريرهم
لهذا الخروج على طاعة الله ، وأنهم يريدون أن يشيعوا موجات التردد
والتشكيك . . . واحد من هؤلاء سألني في ملأ من الناس قائلاً :

أليس الغرض من الصلاة هو النهي عن الفحشاء والمنكر ؟ . . .
فإذا كنا قد انتهينا عن الفحشاء والمنكر ، فما حاجتنا بعد ذلك إلى
الصلاة ؟

فقلت له :

بهذا المنطق المقلوب قد يأتي جندى فى الجيش - وهو مفروض عليه أن يواصل التدريب - حتى يكون دائماً محارباً ومقاتلاً ومستعداً ، يأتي فيقول : إننى محارب ومقاتل ولا حاجة إلى التزام الأوامر . . مثل هذا الفرد لا يمكن أن يقبله الجيش ، أو يكون جندياً عاملاً . . له أن يسمى نفسه متطوعاً أو مناضلاً فى وقت الحرب ، ولا يمكن أن نسميه جندياً . .

كذلك الذى يمتنع عن الصلاة ، وهى فريضة وأمر لا يمكن أن يستقيم بغيره الدين والفرد الذى يبينه الدين ، لا يمكن أن نسميه مسلماً إن ترك الصلاة .

إن الصلاة يا أخى هى الوسيلة المثلى لتدريب الفرد على الاتصال بربه ، حتى تزيد وتقوى وتثبت هذه الصلابة . . وسرعان ما تصبح عاملاً أساسياً لبناء الإنسان على خشية من غضب الله ثم العمل على رضائه ، ومن بين الخشية - وهى عصب التقوى - والعمل وهو شرط الإيمان ، ويتكون الإنسان الصالح لنفسه - ولأهله - وللمجتمع الذى نعيش فيه . .

استمع صاحبي إلى هذا ، ولكنه لم يقتنع ، فعاد يسألنى : هل أحاسب على ترك الصلاة ؟ إذا فاضلنا بين اثنين أحدهما يصلى ويفسق والثانى يتصدق ولا يصلى ، فهل تريد إقناعى بأن الأول مصيره الجنة ، والثانى مصيره النار ؟

قلت : إن حساب الناس ليس من شأن الناس إنه من اختصاص الله وحده ، ولا أحسبك تريدنى على التدخل فى شئون الله . . وأنت لاتعلم ببواطن الأمور ، ولا تعلم ما يكمن فى النفوس ، وحكمك أنت قائم على الصورة التى تراها .

فلماذا نجهد أنفسنا بأسئلة لاتؤدى إلى غاية ؟ . .

ولماذا لانتلزم بأوامر الله ونواهيه إن كنا مسلمين ؟
 لماذا لانحمد الله على أن من علينا بالإسلام ؟
 والحمد هنا ليس معناه الكلام أو تقبيل اليد ظهراً وبطناً ، بل هو
 العمل بأوامر الله واجتناب نواهيه . قال تعالى :

(قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

وانتهت جلستنا ، ومضى كل إلى شأنه ، وعدت إلى مراحل التدريب
 الإلهي للفرد حتى يسلم . . . وحتى يصبح جديراً بالصلة بربه والصلة
 بالمجتمع ، والصلة العالمية بالبشرية جمعاء . إن الله أراد أن ينشئ عبده
 بالأسلوب الرباني ، ففرض عليه الصلاة خمس مرات في اليوم ، يقابل
 فيها العبد ربه ، ويجدد عهده ، ويجار إلى مولاه بالدعاء ، وينخشع له
 وتمتلي نفسه هيبة له فيزداد قرباً من ربه وتسليماً له ، وتمسكاً به واعتماداً
 عليه . . . رغبة في ثوابه ، ورهبة من عقابه . . . وحباً مخلصاً لخالقه . وتوفيقاً
 في عبادته ، وتحقيقاً لرسالته — سبحانه — وتطبيقاً لأوامره التي لا تحتمل
 جدلاً ولا مناقشة . . . أفى الله شك ؟

إن الإنسان منا إذا صادق أخاً له ، وكان مخلصاً في الصداقة ،
 حرص على دوامها ونأى في كل تصرفاته عما يهدد الصداقة أو يغضب
 صديقه . . . فما بالنا والصلة هنا بالله والصداقة لله ؟ . . . ماذا يكون موقف
 العبد من ربه إذا عصاه ، وإذا أغضبه ، وإذا أهمل واجبه ؟ كيف يلقاه ؟
 كيف تكون الصلة بينهما ؟ . . .

اتجهوا يا قوم إلى ربكم خمس مرات في اليوم . . . هذا الاتجاه يهديكم
 إلى التي هي أقوم . وما يزال الفرد جاهداً في دعم الصلة بربه . عاملاً
 على مرضاته ، حتى تتأثر أعماله جميعاً بهذه الحشية . . . وهذه الصلة . . .

فتبدو في المجتمع على الوجه الذي يرضى الله .
 هذه هي الصلاة في جانبها الفردي . أما الجانب الجماعي ، فقد
 فضل الله جزاء صلاة الجماعة على جزاء صلاة الفرد بسبعين درجة ،
 ترغيباً للمسلمين على اللقاء في المساجد ، عند كل صلاة مكتوبة في
 وقتها المعلوم . وعلى الطريقة التي لا تتبدل ، من إمام واحد يؤم الجميع
 متجهاً بهم إلى قبله واحدة ، في صفوف مستقيمة مترابطة ، في تكبير
 موحد ، في حركات منظمة متناسقة .

ليس من شك في أن ذلك تدريب على النظام ، وتقدير الوقت ،
 والوفاء بالموعد . . والتعارف والألفة والتعاون والتغلب على المشكلات ،
 وتكوين النسق الأمثل للديمقراطية في الجماعة ، فتواصي بالحق ،
 وتذكاتف على بناء المجتمع المتراحم . . وهو هدف صلاة الجماعة ،
 تلك الجلسات التمهيدية لصلوات العيدين ، والحلقة الأولى من التدريب
 للمؤتمر الأكبر في ركن الحج .

وثانية الدعائم هي فريضة الصيام :

لكن الله لم يفرض صلاة الجماعة والصلاة الجامعة تمهيداً لمؤتمر
 الحج الأكبر مباشرة . . فقد لا يستطيع إليه سبيلاً . . بل أراد بطريقته
 الرحيمة في البناء التدرج بالإنسان . . ففرض عليه الصوم بعد الصلاة . .
 فرض عليه الحرمان ، وحبب إليه جزاء هذا الحرمان وأغراه به ، ليختبر
 الصلة التي ربطها العبد بربه ، وليشعره بحاجة الجائعين ، وليدربه على
 تحمل المشاق ، وليحسن إعداده لطاعة أوامره — سبحانه — في السر أو في
 العلن ، فإذا نجح في ذلك الامتحان وكان أميناً على عبادته ، فأدى
 للصيام كما يجب أن يؤدي . . أي صوم المعدة وصوم اللسان وصوم
 الفكر . . ودوام الذكر . . أصبح بعد ذلك مستجيباً لشروط الإنسان

الاجتماعى الذى يصلح لبننة فى بناء المجتمع . . ذلك عندما يتطور التدريب من التزامات الفرد . . نحو ربه ويقوم بها ويؤديها وحده إلى تدريب أشد وأقصى . . التدريب على البذل من ذات النفس . . وهو الدخول فى حلبة ثالثة من التدريب والإعداد الإيجاني .

والزكاة هى الدعامة الثالثة لبناء الفرد المؤمن :

قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) أى تعطوا الزكاة والصدقة من أحب ما تملكون وهو المال - وذكره فى القرآن مقدم على الجهاد بالنفس (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

فليس من السهل على امرئ فى مراحل التدريب الأولى أن ينفذ الزكاة إلا بعد النجاح فى توثيق الصلة بربه أى بعد الصلاة ثم الأمانة على هذه الصلة باجتياز تدريب الصوم . . والصوم يهذى إلى عون المحتاج . . فالمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .
أين السلبية فى هذا الدين يا قوم ؟

فإذا استمع القوم إلى أوامر ربهم فأطاعوا وصلوا وصاموا وزكوا وتصدقوا، فحدثوني بعد ذلك عن المجتمع الذى يتألف من أفراد فيهم كل هذه الميزات . .

إنهم يحسنون الصلة بربهم ، ويحسنون الصلة بجماعتهم ويحسنون القيام على أموالهم وأرزاقهم ويقضون حق الله فيها : (إِنْ تُقْرِضُوا

اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفُهُ لَكُمْ) وهكذا حكمه الذي لا يرد .

إن مجتمعاً كهذا لا يمكن أن يكون سليماً . . إنه مجتمع تستحب التضحية من أجله والفداء في سبيله ، فلا تنفذ إليه حاجة ، فالناس بعضهم لبعض ، والغنى مستخدم للسعى في رزق الفقير . . ولا تنفذ إلى هذا المجتمع تفرقة . . فليس كعطاء القادر للضعيف وسيلة تربط بين القلوب ، وتوحد بين الجهود . . وتجمع الناس على المحبة والتعاون ، ابتغاء مرضاة الله . . وحسن جزائه .

ورابعة دعائم بناء الفرد فريضة الحج :

وقد كلف الله بها من يستطيع إليها سبيلاً
وليست السبيل إلى الحج هي القدرة على دفع نفقاته ، وإنما هي استعداد المجتمع المحلي للدخول في المجتمع العالمي . .
فقد فرض الحج مؤتمراً دولياً للمجتمع الإسلامي . .
إنه صورة الأمة الواحدة المتحررة . . أمة التوحيد التي اختارها الله لتلقى رسالته ، واختار الله منها أنبياءه ورسله . . كيف يمكن أن تبدو للعالم هذه الأمة في مؤتمرها الأكبر ؟

لا بد أن تلتقي شعوب الأمة المحمدية على خير ما تلتقى عليه الأمة في حشد ضخم يتكون من مجتمعات متماسكة . . تتألف من أفراد أقوياء البدن والروح ، فليس الحج نزهة أو رياضة . . وإنما هو تدريب على الحشد ، وهو حقيقة عريضة لما ينبغي أن يكون تجمع المسلمين حول الكعبة ، وتجمعهم في عرفة وأدائهم مناسك الحج متجردين من كل شيء . . ناسين كل شيء إلا الله . . وقدوا على بيته تائبين مستعدين للجهاد في سبيله . . بعد أن يتموا أركان دينه ، فيبدو اجتماعهم قوة يفاخر بها الله ورسوله

الملائكة ، وتحقق فيها المنافع الإسلامية الدولية ، حيث يأتمر المسلمون ويتباحثون في مشكلات دينهم ودنياهم ، ويكونون يداً على من عاداهم ، أوفياء لمن يسألهم . . داعين إلى الله في العالمين . مبشرين ومنذرين ، مبلغين رسالة نبيهم الذي بعثه الله هدى ورحمة للبشرية كلها . .

هذه لمحات سريعة عن إيجابية هذا الدين القيم المتطور المتجدد ، أردت أن تكون واضحة أمام الجيل الصاعد من شباب العرب ، ليعرفوا حقائق دينهم وجوهره الأصيل ، حتى لا تتأثر فيهم الأباطيل ، وحتى يتبين لهم الرشد من الغي ، وحتى يسلكوا بها طريق العزة التي قضى الله بها لذاته ورسوله وللمؤمنين .

إن شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تخرج بمن ينطق بها من معسكر العبيد إلى معسكر الأحرار الذين لا يعبدون إلا الله وحده لا شريك له .

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له . . والصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

إن الصيام تدريب للفرد على تحمل المشاق وترويض النفس الأمانة بالسوء ، وكل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لله ، وهو سبحانه هو الذي يجزي به . . ولا بد للفرد المسلم من اجتياز تدريب الصلاة والصوم حتى يدخل مرحلة أشد ، وهي الزكاة أي البذل ، وهو أقصى على صاحبه من أي شيء . وكلنا يعرف كيف أمضى الخليفة الأول أبو بكر الصديق مدة حكمه في الحرب من أجل الزكاة ، فقد قبل أهل الردة الصلاة والصيام ولكن الزكاة عندهم صعبة فمنعوها ، فقام إليهم أبو بكر قائلاً : والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه لرسول الله لخاربهم عليه .

ثم الحج . هذا المؤتمر الدولى العظيم الذى فرضه الله على كل مسلم يستطيع إليه سبيلا .

ونحن إذا وضعنا هذه الدعائم بجانب الإنسان الفرد فى تربيته ونشأته فلا بد أن يكون إنساناً إيجابياً بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى . . ينشأ قوياً . . فلا تهزه الرياح ولا ترعزع عقيدته قوة مهما بلغت هذه القوة .

هذه صورة مبسطة لإيجابية الإسلام فى بناء الفرد والجماعة والوطن والبشرية . وهى قبل ذلك تحتاج إلى التأمل والتفكير والمتابعة لتبقى الصلة بين العبد وربّه ، فتصبح الطاعة شيئاً أصيلاً فى خلقه ، ويمسى ثم يصبح عند الحديث القدسى : [عبدى أطعنى تكن عبداً ربانياً تقول للشئء كن فيكون] .

فهل بعد ذلك يستطيع العبد الربانى أن يستمع إلى من يتقول على دينه بأنه سلبى أو دعوة إلى التواكل ؟

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً !
إن دينكم دين الرحمة للناس كافة . . والرحمة هى الصفة الأولى للرحمن الرحيم ، ترونها فى فاتحة كل سور القرآن الكريم ، ومن تقاليد الإسلام العريقة أن يبدأ المسلم كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم . .

هكذا يبنى الإسلام أتباعه ليكونوا رحماء ، ويقول الحديث الشريف : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » و « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، و « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

والرحمة لاتصدر من ضعيف . . فالضعيف لا يهب الرحمة . . لأنه فى حاجة إليها . . أما القوى فهو الذى يستطيع أن يرحم من يستحق الرحمة . .

فكيف يمكن أن نلصق تهمة السلبية بهذا الدين الحنيف . . الذى أنزله الله رحمة للعالمين ؟ . .

وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حديث شريف :
« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . « ولا يكتمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فكيف نسمى مثل هذه العلاقات الرحيمة تواكلاً أو سلبية ؟
ألا فليتقول المتقولون على الإسلام ما شاءوا ، فإنهم ينطحون الصخر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، فكيف نتصور هذه القوة التى تتسم بها الرسالة المحمدية تواكلية أو سلبية ؟

إذا جئنا اليوم لنعلن أن الإسلام يأبى السلبية ، فى ذلك اعتراف غير مباشر بادعاء من ينسبون السلبية للإسلام . . إننا لا يمكن أن نعرف بهذا الادعاء ، وعلينا أن نتعرف على جوهر ديننا ونتأمل فيه بعمق ، وسندرك أنه لا إيجابية فى أية شريعة سماوية أو قوانين وضعية بقدر ما فى هذا الدين القيم من إيجابية فى صلة العبد بربه ، وصلة الفرد بالمجتمع ، وصلة المجتمع بالوطن . . وصلة الوطن بالبشرية .
ويكفى أن نذكر فى هذا المقام قول الله العلى العظيم :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) .

وحاشا أن يكون دين الله على شىء من السلبية . ومعاذ الله أن يكون دينكم سلبياً . . بل على العكس ، فإن قوة الإيجابية فى هذا الدين هى السبب الأساسى فى خوف أعدائه منه إلى حد اليأس :

(الْيَوْمَ يَثَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَإَخْشَوْنِ) .

إن يأسهم هذا معناه في أول الأمر وآخره أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على هضم جميع المذنيات . والتطور مع كل عصر . . والإيمان بالإنسان من كل جنس وكل ملة وكل دين . حسب هذا الدين أن ينهى عن التعصب تحقيقاً لقول الله عز وجل :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) .

حسب هذا الدين أن يضمن لكل مخلوق حرية العقيدة ، وفريضة العلم ، وحق العمل ، وحق التأمين . . وحق العدل وحق المساواة . . سوف ترتد دائماً سهام أعداء الإسلام إلى نحورهم ، لأنهم يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

الفصل السابع

صوت اليقين .

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » .

(الإسراء : ٣٦)

معنى ذلك أنه يتعين على كل منا ، لكي يصل به الفهم والوعى إلى
مرحلة الثقة ، ولكي يصل إلى مرحلة اليقين ، ألا يكتفى بما يسمع
أو يرى ، بل لابد له أن يلمس بفؤاده الذى يجمع حصيلة حواسه وفكره
وشعوره . . فإن الله عز وجل ، حينما أنزل هذه الآية ، أراد أن يجمع
العقل والقلب والحواس فى كلمة واحدة هى الفؤاد ، لأنه سبحانه
يريد أن تكون إرادة الآدمى إرادة إنسانية كاملة ، لا ترتبط إلا بما تعرف ،
ولا تتحرك إلا بقدر ما تقتنع ، ولا تقتنع إلا بما تعلم أنه الحق ، ولا تقف
ماليس لك به علم . . حتى تتخلص من كل شك ، وحتى تدخل مرحلة
اليقين .

أذكر إلى جوار هذه الآية ، آية كريمة أخرى تحدد فى بساطة
ما يجب أن تقتنع به ، ونلمسه بأفئدتنا . . أذكر قوله تعالى :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)
(الأعراف ١٩٩)

لقد نزلت هذه الآية فى مجال البذل ، ولا يحول الاجتهاد من تفسيرها

في مجال الرأي ، فقد يحول الرأي دون البذل : ويمنع الرأي وحدة الكلمة ، ونحن في حياتنا كثيراً ما نسمع الرأي الخاص فنحسبه رأياً عاماً ، وندخل في متاهات ما ليس لنا به علم ، ولا بد للمؤمن الحق أن يفكر ويتدبر ، ويفرق بين الرأي الشخصي ، والرأي العام ، ليعرف الطريق إلى اليقين . . يرى الحق حقاً فيتبعه ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه .

في ٥ يونيو ١٩٦٧ أذكر أنني قد صحبت الوفد العراقي من القاهرة إلى الجبهة ، لزيارة إحدى الوحدات العسكرية الجوية ، وهبطت بنا الطائرة أرض المطار في الساعة التاسعة إلا ربعاً ، في حين كانت قنابل العدو تدك مدرج الطائرات ، ونحن نغادر الطائرة في سرعة ، واندفعنا نحمل أنفسنا ولكننا في الوقت نفسه كنا نشاهد بدء المعركة ، وذرى آثارها ، ولم تكد تبلغ الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى كانت الكارثة قد وقعت ، وانتهى كل شيء بالنسبة للمعركة الجوية . . شهدنا الطائرة التي كنا نركبها وهي تحترق بقنابل العدو وعدت بالسيارة إلى القاهرة ، ورأيت في ذلك اليوم الحقيقة كاملة ، حقيقة الغدر ، وهول المفاجأة . .

إننا لا بد أن نتصور كل ما حدث يوم ٥ يونيو وما بعده ، حتى نعيش ساعات الهزيمة لشعب عبأ نفسه تعبئة كاملة ، وصولاً إلى شرف النصر . . لكن إرادة الله وحكمته فوق كل حكمة وكل إرادة . . وكل ما يأتي من عنده تعالى هو الخير مهما تصورناه شراً . .

إن الله قد اختص هذه الأمة بكثير من الخير . . أرني بلداً في العالم كانت له ما لمصر من علاقة بالأديان السماوية . . لقد جاء اسم مصر صريحاً في القرآن الكريم خمس مرات ، تكريماً لهذا الوادي الطيب وإعزازاً لهذا الشعب الكريم ، الذي عاش تاريخه العريق ، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قبلة العلم والإيمان ، والأصالة ، والنضال ، والصمود .

لقد تعرضت هذه المنطقة من العالم لأطماع الغزاة . وغارات الطامعين ، فلم يجدوا أمامهم مثلاً في الصمود بحق . ولم يجدوا قاعدة للنضال بحق . أكثر من مصرنا العزيزة ، بقوة إيمانها وبطولة شعبها . . فعاشت وستبقى دائماً الصخرة التي يتحطم عليها كل معتد يريد القضاء على إيمان هذا الشعب ، ويريد تحطيم مبادئه ، ويريد أن ينال من القيم والمثل العليا له . وعندما نذكر القيم والمثل والمبادئ ، يندفع إلى خاطري أننا حينما قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وحينما وقفنا جميعاً حول جمال عبد الناصر ، مناضلاً وقائداً على المبادئ التي سرنا على طريقها ، كنا نقف من حول المبادئ . وكانت المبادئ هي التي تكرم الأشخاص ، تكريم المؤمنين بها ، فنحن لم نكرم فرداً لذاته ، ولكن نكرم المبادئ والقيم والمثل ، وما زلنا نعتز بهذه المعاني جميعاً وقد تجسدت في هذا القائد . . هذا المناضل الذي أعلن مبادئ الثورة الستة المشهورة . . المبادئ التي تحولت إلى أعمال ثورية ومجيدة . . نذكر جميعاً أول هذه المبادئ .

القضاء على الاستعمار :

لقد تصورنا هذا المبدأ ، بعد تحقيق الجلاء مرتين حتى عام ١٩٥٦ ، قد استنفد أغراضه . . لماذا ؟ . . لأنه قد تحقق . . الواقع يؤكد العكس ، فإن الاستعمار قد أنشأ له فوق أرضنا قاعدة تريد أن تخطف الحيز من أفواه الكادحين ، والرزق من أيدي العاملين ، والإيمان من عقيدة المؤمنين .

ويحضرني الآن مثل رأيته في زامبيا الشقيقة . . كنت في زيارة رسمية لها في عام ١٩٦٥ ودعيت إلى رحلة في منطقة حزام النحاس . منطقة تمتد من زامبيا إلى داخل إقليم كاتنجا في الكونغو . . سألت العاملين في الشركة المستغلة لحزام النحاس عن إيراد مناجمه كل عام . .

وكان الجواب أن حزام النحاس ينتج سنوياً قرابة سبعمائة ألف طن من النحاس الخالص . . . ويبلغ سعر الطن منه ما يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جنيه وأحياناً يقفز إلى ٧٠٠ جنيه . . . لقد رأيت ما أذهلني وسمعت ما أذهلني . . . وتذكرت على الفور أننا كنا نعيش حقيقة كهذه في أرضنا . . . الأرض التي أجزل الله عطاءها من الثروات والخيرات . . . ذكرتها وأنا أزور حزام النحاس في زامبيا . . . وقلت لنفسي : إن قضية الاستعمار لا يمكن أن تنتهى بالسهولة التي يتصورها البعض . . . ومن أجل ذلك يدبر الاستعمار مؤامراته من حولنا ، ولا ييأس . . . كيف يمكن أن يضحى بمثل هذه الخيرات ، وهذه المنافع ، ويترك للثورات الوطنية الحرة الصادقة تقضى على آماله في هذه المنطقة من العالم ؟ . . .

إننا نسمع في بعض الأحيان من أعداء العدالة الاجتماعية من يقولون إنه لولا الاشتراكية لما هاجمنا الاستعمار ، وخاض ضدنا المعارك . . . مثل هذا الرأي الخاص يعبر عن خطأ فكري والدراسة الموضوعية تقتضى منا أن نجيب عن الأسئلة الآتية :

هل كانت في مصر اشتراكية عندما أغار عليها الهكسوس والمغول والتتار والاستعمار المستر باسم الصليب ؟

هل كانت هنا اشتراكية عندما تصارعت فرنسا وإنجلترا في معارك أبي قير البرية والبحرية لاحتلال مصر ؟

وحينما تكاثفت جميع أساطيل أوروبا وجيوشها ضد الأسطول المصري في معركة تقارين عام ١٨٢٧ ؟

هل كانت عندنا اشتراكية ؟

لقد كان الهدف من ضرب الأسطول المصري في تلك المعركة هو أن تنطوي مصر داخل حدودها ، ولا تحاول أن تتربط تربطاً عضوياً مع بقية أجزاء الوطن العربي ، أو تكون قاعدة قوية في المنطقة . . . هكذا كان

شأن الاستعمار معنا دائماً ، يهاجم فينا أى بادرة من بوادر القوة . .
يهاجم المبادئ والقيم والمثل التى تحمى خيرات هذا البلد ، وتحرس عقيدة
هذا البلد . .

إن بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ حينما يتكلم عن أبعاد المعركة ، لا يخص
بالذكر الحادث العارض الذى وقع فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، ولكنه يعنى
هذه الأمة العربية الممتدة إسلاماً وإخاء ومودة إلى كثير من بلاد العالم عبر
القارات والمحيطات .

لقد استمعنا جميعاً إلى خطاب المغفور له الرئيس جمال عبد الناصر
إلى المثقفين بجامعة القاهرة يوم الخميس فى ٢٥ أبريل ١٩٦٨ وهو يقول
فى يقين :

« إن الموضوع ليس هو الجلاء عن سيناء وحدها . الموضوع أكبر
من هذا بكثير . . الموضوع أن نكون . . أو لا نكون » .
عندما أذكر الآن أننا حينما ارتبطنا بجمال عبد الناصر القائد فى
عام ١٩٥٢ ، كنا وما زلنا نرتبط بمن يحمل المبادئ ويسير بنا ، ونسير
معه ، لكى نحقق هذه المبادئ أو نقضى دونها .

لماذا ؟ . . لأن هذه المبادئ تعنى حرية الوطن ، وتعنى حرية
المواطن ، وتعنى العزة التى نحسها تطبيقاً لقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون ٨)

وهذه العزة لا يمكن تحقيقها بالأقوال أو بالشعارات . . وإنما تتحقق
بقدر ما نناضل ، وبقدر ما يكون فى نفوسنا من تصميم ، سيكون عدونا
على استعداد للتسليم .

إننا حينما نستشعر الحرية يجناحها : الاشتراكية والديمقراطية . .
نجد أننا قد ضربنا فى الديمقراطية بسهم وافر ، ونحن نتدارس مبادئ

الثورة في مجال التطبيق . وناقش برنامج العمل للنصر في قلب المعركة ، حتى أحس كل مواطن بأنه قادر على التعبير ، ولكنه حينما يستمع إلى الرأي ، لا بد أن يفرق بين الرأي العام والرأي الخاص ، لكي يصغي إلى ما يسمع ، ولكي يدرك معنى الآية :

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (الإسراء ٣٦)

حتى تعرف ما هو الحق ، وتعرف ما هو الصواب ، وما هو الشك ، وما هو اليقين . إنني حينما تمثلت الآية :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »

إنني لأردد هذه الآيات بلا رأى ولا هدى . . وإنما أريد أن أقول إنني حينما أستمع إلى قول لا بد أن أعي ما أسمع . . ثم أنظر أبعاد المعركة ، فألمس بفؤادي أن معركتنا كانت وستظل دائماً هي تثبيت الاشتراكية ، طريقاً وأسلوباً إلى الكفاية والعدل . . ولكن من هم أصحاب المصلحة الحقيقية في الكفاية والعدل ؟ . .

هنا تحضرني صورة أمجادنا . . في هذا المجال :

أن نقرأ أن بعض الأغنياء جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله : إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء الفقراء — وكانوا يقصدون أبا ذر الغفاري وسلمان الفارسي وفقراء المسلمين — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك .

يقول سلمان الفارسي راوي الحديث : فأنزل الله تعالى :

(وَآتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . « أي ملجأ » وَاَصْبِرْ

نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .
وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا) .

أى يا محمد لا تتجاوز عينك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً
لزينتهم . . لا تترين يا محمد بمجالسة هؤلاء الأغنياء الذين اقترحوا أبعاد
الفقراء عن مجلسك .

ولم يرد النبي عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك . ولكن نهاه عن أن
يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله تعالى :

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

كانت هذه دعوة أغنياء مكة أن يتخلى النبي عن الفقراء . .
للفقراء أصحاب الحق الأكبر في المجتمع والمصلحة الحقيقية في التغيير .
فماذا كان رد النبي على قول أغنياء مكة حيناً أرادوا منه إبعاد
للفقراء ؟ . يقول سلمان الفارسي رضى الله عنه : فقام النبي عليه الصلاة
والسلام يلتمسهم حتى أصابهم في آخر المسجد يذكرون الله قال :
« الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى .
معكم المحيا ومعكم الممات » ..

صلى الله عليك يا رسول الله .. ويا من صرفت نظرك عن قول الأغنياء
وقمت من مكانك وسعيت بنفسك إلى فقراء أمتك الصالحين .
أنت القائد والرسول تسعى إليهم في مجلسهم وتجلس إليهم حامداً
ربك على هذه الصحبة الطاهرة .

بغير هذا المذهب لا يمكن أن يقوم عدل حقيقى فى المجتمع . ذلك لأن
الفقراء هم أصحاب المصلحة الأولى فى إقامة العدالة الاجتماعية وإليهم
تتجه عين القيادة وقلبها .

ولننظر إلى أنفسنا نحن : إن كل واحد منا قد نال فرصته فى الحياة . .
هذه الفرصة كانت من عرق الملايين وجهد الكادحين . ومع ذلك نحن
لم نذكر بعد الآية الكريمة :

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر : ٨)

ولقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة فى تفسير هذه
الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو
بأبى بكر وعمر :

فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟

قالا : الجوع يا رسول الله .

قال : وأنا الذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، قوما .
فقاما معه حتى أتى داراً من الأنصار .

وسعد الأنصارى بهذا المجيء الكريم وقال فرحاً : الحمد لله .. ما أحد
اليوم أكرم أضيافاً منى .

وقدم إليهم الأنصارى شاة وتمراً وماء عذبة فلما شبعوا ورووا قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر :

«والذى نفسى بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة .. أخرجكم
من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .. ظل بارد
ورطب طيب وماء بارد» .

والله إن بدنى ليقشع كلما ذكرت هذه الآية ، وأحس بثقل
المسئولية الملقاة عاتق الثوار نحو جماهير الفلاحين والعمال .. وأذكر

على سبيل المثال أنى من قرية بمركز قويسنا كل زمامها خمسمائة فدان .
وليس بين أهل قرية يتنا مالك واحد ، كل ملاكها من الوافدين ، وأهل
القرية ، من المستأجرين ، كل ثمانية أفراد يعيشون على فدان واحد . .
هؤلاء الأهل عندما أذكر حديثهم وتطلعاتهم أذكر أن الواحد منهم
يتخيل أحياناً أنه يملك فداناً ، فلا تكاد تسعه الدنيا . .

والآن وقد اتسعت بالثورة آمالهم . . وامتدت إلى تعليم الأبناء إلى
أعلى المستويات ووفرت لهم الثورة ذلك ما داموا عاملين مجدين قادرين .
إننا يجب أن نفكر فى هؤلاء المواطنين وفى مصائر أبنائهم . .
فى المستقبل الأفضل الذى يحاربنا عليه أعداؤنا .

والله إذا لم نتكاتف ولم نصمم على استمرار الثورة الاجتماعية ،
وعلى وعى بحقيقة أبعاد المعركة ، وتتسع صدور بعضنا للبعض الآخر ،
ويلتزم المثقفون بواجباتهم إزاء الملايين ، لا نكون جديرين بالحياة فى هذا
البلد ، ولا نكون جديرين بشرف تحقيق العدالة الاجتماعية .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) .

إن أروع معانى الثورية هى الالتزام بحوائج الناس . . هذه أصدق
حقيقة لفهم أبعاد معركتنا الآن . . معركة العدل الاجتماعى .

لننظر إلى قوله تعالى : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ
مَشِيدٌ » (الحج ٤٥)

حقت كلمة الله بالهلاك لمجتمع يظلم بعضه بعضاً ، حتى بلغ

التناقض فيه أن نرى قصرأ مشيداً وإلى جواره بئر معطلة لا تجود على ظمآن بجرعة ماء . . تجسيد حي للظلم الاجتماعي الذي يستوجب الهلاك .
ومن هنا كانت أهداف الإسلام كلها مجتمعة في كلمة واحدة هي الرحمة . . والرحمة قمة العدل الاجتماعي في مجال التطبيق . .
خذ العفو — أى ما يفيض — وأمر بالعرف — أى ما تعارف عليه الناس ، وأعرض عن الجاهلين ، عن المشككين ، عن المضللين ، حتى لا تضيع في دوامة الرأي الخاص ، الرأي الشخصى ، الرأي الأثانى ، الذى لا يحس بالالتزام ، وإنه جزء من كل . . فرد في أمة قال الله فيها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران ١١٠) .

ويوم يختلف الرأي ، ويصبح المعروف منكراً ، ويصبح المنكر معروفاً تكون المصيبة العظمى . . إننا في مجال التطبيق يجب أن نلتزم بما تعارف عليه الناس ، وما تتوازن به حياة الناس ، وبما يمليه الضمير الحى ، والعقيدة السمحة ، والاهتمام أولاً بصالح المجتمع ، على أسس من الأخلاق ، ومن القدوة الحسنة التى قدمها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . وإلى هؤلاء الذين يتحدثون عن الاشتراكية في كل زمان ومكان أتجه بالسؤال : هل وجدوا بينهم إنساناً يموت مديناً ، وقد عرض عليه أن يكون له مثل الجبل ذهباً فيرفض ، لا يجدون يوم وفاته سوى درعه ليباع من أجل سداد دينه ؟

إن هذا الأمر لا يقوى على احتمال له أو فهمه المتشدقون بالاشتراكية قولاً لأفعلاً . . ولا من يقولون عن أنفسهم نحن مسلمون . بالسنتهم ولم تؤمن قلوبهم . . إن السعى إلى الاقتراب من هذا المثل يصل بك إلى قمة

المجد . . . ولكن تحقيقه عملية صعبة . . . تدريب عنيف لطبيعة الإنسان
عندما يبيع دنياه بدينه ، ويهاجر بدينه ومبادئه . . .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)
(الرعد ١١)

إذا غيرنا ما بأنفسنا ، فسيأخذ الإيمان مكان الشك ، وعندما يتوافر
الإيمان فلن يكون هناك تساؤل عن الضمان .
إن الرئيس الحالد عندما نادى بالتغيير ، وكان أول من أعلن حتمية
التغيير ، كان يعنى تغيير ما بالنفس ، حتى نشعر بوجودنا ، وبقيمنتنا ،
وبمبادئنا ، وبمكانياتنا ، وأن ليس هناك ما يفصل بين ماضينا ومستقبلنا ،
وسيكون إصرارنا هو الضمان الوحيد للتقدم إلى ما نريد وليس إلا ما نريد .
فلنجعل من النكسة العارضة في ٥ يونيو مشعلاً يضيء أمامنا الطريق ،
ويزكي شعورنا بحقنا في أن نملك زمام أمورنا في كل موقع . . . لكي
تبقى الثورة ، وتثبت المبادئ ، وترتفع القيم ، ويكون النصر من عند الله
سبيلاً إلى تحقيق الكفاية والعدالة ، في مجتمع متكافل متراحم ،
يتسب إلى خير أمة أخرجت للناس .

الفصل الثامن

محمد قدوة الدعاة

إنني أشعر الآن ، أكثر من أى وقت مضى ، بأن مسئولية الدعاة في توعية الجماهير ، مسئولية ضخمة ، تشترط فيمن يحملها أن يعرف هذه المسئولية وكيف آلت إياه ، وما هو موضوعها ، وما هي وسائلها ، وما هي الغاية منها فإن هذه الأمة ، كما قال محررها الزعيم الخالد جمال عبد الناصر : «تقف الآن على نقطة من نقط التاريخ الحاسمة . . نقطة يمكن أن يتحدد فيها المصير ، وأن يتشكل القدر بإرادة الله التي تلهم لإرادة هذه الأمة ، وتوجه خطانا جميعاً إلى سواء السبيل» .

إن مسئولية الدعاة قد بدأت منذ وقف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، يلقي خطبة الوداع ، فقال في ختامها ما قال الله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

ثم سأل الجماهير المؤمنة المحتشدة في مؤتمر حجة الوداع : ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : اللهم فاشهد . ثم كررها ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : اللهم فاشهد . وفي المرة الثالثة سأهم : ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : فليبلغ الحاضر منكم الغائب . اللهم فاشهد .

صدق رسول الله . وأشهد الله أنه أبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ،
 وكلف المؤمنين الحاضرين بتبليغ الناس دعوته ، ما بقيت الحياة . . فإذا
 كان هذا التكليف موجهاً إلى المؤمنين ، فما بالكم بالدعاة ؟ . . ما بالكم
 بالأئمة ؟ . . ما بالكم بالمرشدين ؟ . . ما بالكم بمن قال فيهم رسول الله
 «العلماء ورثة الأنبياء» ؟

يا دعاة الإسلام .

هل تستجيئون لتكليف الرسول ؟ . .

هل تحملون حقاً مسئولية الدعوة ؟ . .

هل تقدرّون على تبليغ هذه الرسالة ؟ . .

هل يستطيع المسجّد أن يتفاعل مع الأحداث ؟ . .

هل تستطيعون توعية الجماهير بأحكام الدين ؟ . .

هل تستطيعون هذا ، أم أن هناك ما يحول بينكم وأداء

هذه الرسالة ؟ . .

إنني أعترف بأنه ما من عمل لا تعترضه عقبات .. وما من مسئولية

لا تقف في سبيلها مصاعب .. ولو أضعنا كل الوقت في بحث العقبات ،

وفي تدليل المصاعب ، لكان ذلك اعترافاً منا بوهن العزيمة ، وضعف

العقيدة . . وإن أردنا النجاح ، وجب أن نكون أكبر من كل عقبة ،

وفوق كل صعوبة ، واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على

الخاصين .

لذلك ، فإنني أفضل في مجال الدعوة ألا أناقش الصعاب ، بل

أناقش الدوافع ، ولا أعترف بالعقبات ولكني أتفق معكم على الأهداف ،

وبقدر ما في نفوسكم من عزم ، سنحقق ما نريد ، ويقدر ما في قلوبكم

من إخلاص ، سيكون لكم التوفيق .

ألا فخبروني بربكم ، أية أعباء ألقيت على رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وكان يتيماً ، وكان عاثلاً ، وكان ضالاً ، ولكنه استقام كما أمر ،
 وحمل العبء وحده . . لم تهزه الأحداث . . لم يكثر للصعاب . . لم
 يسلم بالعقبات . . لأنه آمن بربه . . لم يشرك بعبادته أحداً ، فإن الشرك
 لظلم عظيم .

الشرك أيها الدعاة من أكبر الكبائر . . إنه يقعد بالناس عن العمل .
 يورثهم التحلل والتفكك . يشبط العزائم . . يكل أمر الناس إلى الناس .
 إلى ضعف وذلة وهوان .
 فإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ،
 ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .
 وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقناكم ، ولوا وهم معرضون . ينخسون الفقر ،
 ويحسبون أنهم بالشح سيؤمنون حياتهم ، وهم لا يشعرون بأنهم يشركون بمن
 عنده خزائن السماء والأرض ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين .
 إن مسئوليتكم محددة واضحة ، وأنتم أول المكلفين بتبليغ ما أمركم به
 وما دعاكم إليه الرسول .

وليس من شك في أن ظروفكم اليوم أيسر بكثير من الأهوال التي
 تعرض لها هذا الرسول الكريم . . وليس مطلوباً منكم أن تكونوا يتامى
 فقراء كما نشأ . . وليس مطلوباً منكم أن تربطوا الأحجار على البطون
 كما فعل !

كل ما يرجى منكم هو تبليغ رسالته ، وحمل أمانته ، ودعوة الناس
 بدعوته . فإذا عرفت مسئوليتكم ، وإذا اتجهتم إلى الواجب مخلصين ،
 فلن تقف أمامكم عقبة ، ولن تعترض سبيلكم مصاعب . . سيدفعكم
 الإيمان إلى الاقتداء برسول الله ، وإلى التمسك بالهدف من رسالته ،
 لتكونوا حقاً ورثة الأنبياء .

(فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)
 (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

فهل لنا أن نتدبر النور الإلهي حين يهجم الظلام ؟ . . هل
 لنا أن نعود إلى الكتاب المبين لنهتدي يوم تتفرق بنا السبل ؟
 للرحمن علم القرآن . . كيف علمه ؟
 خلق ابن آدم وعلمه كيف يفصح ، وكيف يبين ، وكيف يتدرب
 على الاتصال بخالقه ، وكيف يرى الحق حقاً فيتبعه ، والباطل باطلاً
 فيجتنبه .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)

إن أرحم الراحمين قد بعث رسوله هدى ورحمة للعالمين .
 فما هي الرحمة التي بعث بها النبي العربي الكريم ؟
 أهي تلك العاطفة البلهاء التي تضطر العاجز إلى العفو عن ظالمه لأنه
 أقوى منه ؟

لو كان الأمر كذلك لرحم سيدنا محمد أعداءه ، وكانوا ذوى

قوة وسطوة وأكثر عددا وعدة ، ومع ذلك فقد أمره ربه بقتالهم ، يوم غرتهم

أموالهم وأولادهم وظنوا أن في استطاعتهم القضاء على الرسالة والرسول ،

ولكنه الإيمان متى استقر في القلوب ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين

سبيلا .

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)

(رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
 (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
 لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ،
 وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى
 بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) .

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ)

وهكذا أمر الله رسوله بأن يؤلف جيوشه من المؤمنين ، وأن ينظم صفوفهم للجهاد ، وأن يجعلهم عدته في الحرب لإعلاء كلمة الله . لنشر رسالة الرحمة . الرحمة الشاملة الواعية . الرحمة التي تبرز في كل معنى من معاني القرآن ، والتي كانت ولا تزال وستظل الهدف الأسمى من رسالة الإسلام .

وما كان طريق هذه الرسالة ، منذ البدء ، سهلاً ميسوراً ، فقد لقي الرسول والذين آمنوا معه كثيراً من أذى الكفار والمشركين والمنافقين ، ولكنهم صبروا ، وصابروا ، واعتصموا بحبل الله ، فأيدهم بنصر من عنده ، لأنهم لم يتخذوا للكافرين أولياء من دون المؤمنين . ولأنهم يوفون بعهدهم ، ولا ينقضون الميثاق ، ولأنهم يصلون ما أمر الله أن يوصل . يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

هؤلاء هم المؤمنون حقاً . هؤلاء هم جنود الرحمة . هؤلاء هم قاعدة البناء . هؤلاء هم الذين يعول عليهم في تحقيق الرسالة ، وإشاعة الرحمة ، وتحقيق العدالة ، وإقامة خير أمة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . وإننا لنعجب الآن ممن يطلبون الرحمة ممن لم يرحموا الأمة . .

كيف يمكن أن يكون هذا ؟

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لَأَبِيهِ ، إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ
لِللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) .

هذه هي القدوة يا دعاة الإسلام في مجال التفرقة بين المؤمنين ،
وبين الكافرين والمشركين .

إننا ننادى الآن بثورة اجتماعية .. ننادى بالعدالة لمن فقدوا العدالة .
ننادى بالحياة لمن تقطعت بهم أسباب الحياة . ننادى بالرحمة الشاملة
الواعية للمعذبين في هذا الوطن . ننادى بتطبيق شريعة الله .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ
فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) .

سوف يسأل كل منكم عن علمه كيف عمل به . سوف يسأل كل منكم
عن رسالته كيف أبلغها . سوف يسأل كل منكم عن النور الذي يحمله
كم من الناس استضاء به .

إننا الآن في مجال تنظيم الصفوف ، وما كانت دعوة الرحمة إلا
دعوة اتحاد وتعاون ، ومن تخرج على هذه الدعوة ، فهو أناني مشكك
وظالم لنفسه وللناس ، ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية .

فلا عجب إذا وجدنا بين الصنفين من يرون في تطبيق العدالة خطراً عليهم ، ولا عجب إذا وجدنا في مجموع الأمة نقراً كارهين لتحقيق الرحمة ، فهكذا كان شأن الكفار والمنافقين مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ... وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ، قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) .

ليس هذا فقط ، بل كانوا يبعثون الأموال لشراء ذوى النفوس الضعيفة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ) .

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ) .

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ
غِشَاوَةً .

تلك حدود الله ، كشف بها أعداء دينه ، والخارجين على شريعته ،
وجعلهم شر الدواب ، يؤمنون بالباطل . ويكفرون بالله ، لهم في الدنيا خزي
ولهم في الآخرة عذاب عظيم .
أيها الإخوة الدعاة .

إن الله قد امتحن المؤمنين ، منذ بعث فيهم رسولا منهم . ابتلاهم
بالكفار والمشركين ، وأمرهم بحربهم ، ونصرهم عليهم .
ثم ابتلاهم بطائفة المنافقين . أولئك الذين كانوا أخطر على الأمة
من الكفار ومن المشركين .

وما تزال الأمة حتى اليوم مصابة بمثل هؤلاء .

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ
لِقَوْلِهِمْ ، كَانَتْهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ . . يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

وكلنا يذكر أيها الإخوة قصة عبد الله بن أبي كبير المنافقين في
المدينة .

لقد كان هذا الرجل سيداً في قومه ، بل كان ملكاً على المدينة
قبل أن يدخلها الإسلام . قام في وجه الدعوة أول الأمر ، فلما هاجر
النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووجد ابن أبي نفسه أمام قوة لا تغلب ،
أعلن إسلامه ، واعتزم أن يهدم من الداخل .

رأى المسلمين جبهة قوية عزيزة مؤمنة ، تؤدي الفرائض ، وتحرك
للفتح من مسجد قباء بالمدينة .

وقد أقام عبد الله بن أبي وجماعة المنافقين مسجداً بجواره ، وبعثوا
بنفر منهم إلى رسول الله يقولون له : إنا قد بنينا مسجداً يرعى ذى العلة ،
ويساعد صاحب الحاجة ، ويأوى شريد الليلة المظلمة ، والمستجير من برد
الشتاء . ونحب أن تصلى لنا فيه وتباركه .

فقال النبي : إني على جناح سفر ، وحال شغل ، وإذا قدمنا إن
شاء الله صلينا فيه .

فلما رجع النبي من غزوة تبوك ، هم بفتح المسجد . فناداه جبريل
بالآيات البيّنات :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
وَلِيُخْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى « يعنى
مسجد قباء » مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ
رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ .
أَفَمَنْ أُسُسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ، أَمْ
مَنْ أُسُسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

هنا دعا النبي بعض صحابته من المجاهدين ، وقال انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه ، ثم أحرقوه .

فانطلق الرجال المؤمنون إلى مسجد المؤامرات والفتن ، فهدموه ، وأحرقوه ، وفر أهله منه . وانكشف عبد الله بن أبيّ وأتباعه ، وتطهرت صفوف المؤمنين من المنافقين الذين قضى عليهم بأن يكونوا في الدرك الأسفل من النار .

وهكذا أيها الإخوة . يوضح لنا الإسلام معادن الناس في ثلاثة : المؤمن وهو المواطن الصالح الذي يعرف ربه ، ويعرف وطنه ، ويعرف أنه يستمد عزته من عزة الله .

والكافر هو العدو لذلك كله ، الخارج على الدين والقانون والنظام . يستوى في ذلك المقيم والوافد .

والمنافق وهو أشد خطراً من الكافر ، لأنه ينتسب إلى الدين رياء ، ويتمسح بالإيمان خداعاً

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ) .

وهكذا ترون معي أن انتشار دعوة الرحمة لم يكن بالأمر السهل ، وأن العقبات والصعوبات لم تكن في الإمكانيات ، بقدر ما كانت في النفوس . كانت صراعاً بين الحق والباطل . كانت حرباً بين الإيمان والكفر والشرك والنفاق . ثم نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

انتصرت عقيدة الإيمان ، ونحطت جميع العقبات ، وحطمت جميع الصعاب ، لأن الرحمة كانت الهدف ، ولأن الرحمة كانت الغاية ، هدف الدعوة ، وغاية الرسالة ، الرسالة التي هي أمانتكم . والدعوة التي هي عملكم .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) .

أكتب هذا وأدعوكم إلى أن تزيدوا الناس معرفة بدينهم ، وبقوة عقيدتهم ، وبكل حقوقهم . أدعوكم أن تنشطوا إلى تحويل المساجد إلى مراكز للإشعاع ، ولا يكفي فقط أن تقام فيها صلاة ، فقد شرعت الجماعة لتوحيد الصفوف ، وتنقية الصدور ، وتوعية المؤمنين بكيد الكافرين والمنافقين ومن يسعون بينهم بالدس ، والهمس الجبان .

إن دعوة الثورة الاجتماعية هي الدعوة إلى الرحمة .

ومن يخرج على هذه الدعوة ، أو يحاول التشكيك فيها ، فهو خارج على وحدة الأمة . فاكشفوهم حيث وجدتموهم ، إنهم أعداء الشعب وأعداء الدين . فإن من يقف في سبيل العدل يدافع عن الظلم . ومن يقف في سبيل الكفاية إنما يعمل على إشاعة الفقر . ومن يحاول تفرقة الكلمة ، فإنما يفتح الطريق أمام الحزبية ، والرجعية ، والانتهازية ، والأنانية ، وكلها مرادفات للشرك والنفاق والضلال .

لقد أردت بهذه الخواطر أن أضع أمامكم صورة لتنظيم القوى الشعبية في مفهوم الإسلام . فقد انتشر هذا الدين القيم بقوة الإيمان ، وداس في طريقه قهوى الكفر والشرك والنفاق ، لكي تسود الرحمة في هذه الأرض . والرحمة كما قدمت هي جوهر الرسالة ، فاجعلوها قبلة أعينكم . ولتكن المساجد منذ اليوم أوعية للنور ، وأدوات لترجيح كفة المؤمنين ، وعزل الكفار والمنافقين ، حتى لا تكون في بناء هذه الأمة ثغرة ، وحتى يستقيم الأمر في حياتنا ، على شريعة العدل شريعة الله .

هذا هو دعاء الثورة منذ قامت . أسست بنيانها على تقوى من الله . تعمل ما وسعها العمل على تخليص هذا الشعب من أفسدوا عليه إيمانه ، ومن زلزلوا عقيدته ، ومن حكموه بالباطل ، ومن حرموه حق الحياة ، ومن أذلوه وهو العزيز بأمر الله .

تحت راية القرآن

إنه الشوق إلى البيت العتيق . . والشوق إلى زيارة الروضة الشريفة . . شوق يأخذ بقلب كل من حج واعتمر وزار . . كلما أقبل موسم الحج كل عام . . وتكاد تنقله الذكريات إلى الكعبة وعرفات والمناسك . . وذلك المرعى الحصيب لكل قلب مضى .

وسط هذه الموجة من الذكريات التي جرفتني طول موسم الحج الأخير ، عدت مع الأحداث إلى موسم عام ١٩٥٤ ، وقد كنت فيه من حجاج بيت الله الحرام ، وأذكر أنني قد رأيت في طريقى بين مكة ومنى ، جبلا عظيماً استحوذ على كل مشاعرى ، وكلما سرت بجواره شعرت بأنه يجذبني إليه . . حتى جاء اليوم الذى صعدت فيه هذا الجبل الشاهق (جبل النور) هذا الجبل الذى طالما تشرف بصعود سيد البشر وخاتم الأنبياء . . صعدته لكى أستوحى هذا المكان الطاهر - غار حراء القائم حتى الآن فى قمة جبل النور - صعدت إلى هذا الغار أستوحيه فكراً يقربنى من رى وحبيبه .

فلما كنت فى داخل الغار المبارك . رأيت مكة على سطح الأرض صغيرة كأنها خريطة ، وتصورت حينما كانت تشرق الشمس على مكة ، كانت تشرق أولاً على هذا الغار العالى ، تبشر أم القرى بمولد فجر جديد ودين جديد .

وطافت بذهنى يومها صور اعتكاف رسول الله وتعبده الأيام والليالى الطوال ، حتى صفت روحه ، وأشرقت نفسه ، وجعله التأمل للروحى على الموجة المناسبة للاستقبال العظيم . .

استقبال رسالة الرحمة للعالمين .

وذكرت يومها كيف ترددت فوق جبل النور أصداء الوحي الأول ،
حينما جاء به جبريل إلى محمد في هذا الغار : وأخذه بكل شدة وعنف ،
وراح يضمه إلى صدره ويضغطه حتى كاد قاب النبي أن ينخلع . .
ذلك لكي يحس بأنه أمام حدث كبير وخطير ، حدث ليس بالهين
أو اليسير ، وإنما هو القرآن العظيم ، دستور بناء البشرية وميثاق
الرحمة للعالمين .

إن هذا الحدث الضخم الذي هز مشاعر النبي وارتجف له قلبه ،
ليطرح نفسه بيننا اليوم . ونحن نعيش هذه الشدة ، نعيش أحداثاً هزتنا
هزاً عنيفاً ، وزلزلتنا زلزالاً شديداً ، لكي نتأسي برسول الله ولكي نشعر
بحاجتنا إلى صدق الإيمان بالله ، ولكي نذكر موقفنا في المعركة ، يوم
خرجنا في العاشر من يونيو ١٩٦٧ وقلنا لجمال عبد الناصر رحمه الله :
إنك أنت القائد . . أنت الرائد . . لا أحد غيرك ، ونحن من خلفك .
والله غايتك وغايتنا ، فهو الذي جمع من حولنا كل الحلائق ليس
في الوطن العربي فحسب ، بل في الوطن الإسلامي كله .

لقد أحسنا منذ وقوع العدوان الصهيوني الاستعماري على أرضنا
المقدسة في الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، أننا مطالبون بالثبات في الشدة ،
مطالبون بحشد كل قوانا السياسية والاقتصادية والعسكرية . . وأحسنا
أكثر من هذا كله ، وقبل هذا كله ، بحاجتنا إلى تعبئة قوانا الروحية ،
فإن قوانا الروحية لا يمكن أبداً أن تغلب ، وإن عزتنا الإسلامية — بحق
القرآن — لا يمكن أبداً أن تهون .

كل ما نحتاج إليه هو أن نتدبر أمرنا مع القرآن ، هذه الثروة التي
لا تعد لها ثروة ، نريد أن نتدبر ماذا يمكن للقرآن أن يصنعه ، وهو بين
أيدينا رسالة ، وهو في أعناقنا أمانة .

كل ما نحتاج إليه هو أن نعرف كيف نجني ثمرات القرآن ، وهي ليست في الترتيل والتطريب ، ولكنه التشريع الأمثل ، وهو التصميم المنزل لقواعد راسخة من العلم ، يبنى بها أمة القرآن ، صامدة لاتلین ، جادة لاتهزل ، أمة تعرف طريقها إلى الله ، فلا تضل أبداً .

(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) .

والقرآن ميثاق الرحمة للعالمين ، أنزله على قلب نبي الرحمة ، نوراً وهدى وشقاء ، وهو كتاب الله سبحانه القائل لنبيه .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) .

وهو سبحانه القائل للناس :

(لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاسِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) .

وهو جلت حكمته الذي علم القرآن لمحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وانتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن أبلغ الرسالة وأدى الأمانة . . فكيف الطريق إلى مواصلة التبليغ وأداء الأمانة ؟
يجيب القرآن :

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

وما دامت للإنسان قدرة على البيان والإفصاح فرسالة الرحمة ستجد من يبلغها ، وأمانة القرآن ستجد من يؤديها . حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

ولكن هذا الإنسان مطالب بمعرفة دوره في الحياة . . مطالب بمعرفة

واجبه كمسلم ومؤمن . . مطالب بأن يعرف أن دينه دين الجهاد . .
الجهاد المتواصل من أجل تحقيق الرحمة، بالفرد ، والرحمة بالمجتمع والرحمة
بالبشرية .

والجهاد من أجل تحقيق الرحمة للناس كافة ، يتطلب إعداد الأفراد
المجاهدين ، والمجتمعات الصادقة الإيمان ، ، والبشر الذين باعوا أنفسهم
وأموالهم له .

إنني ما ادعيت يوماً أنني من علماء الإسلام ، ولا من فقهاء هذا
الدين ، ولكنني أتحدث كمسلم من واقع حي ، ألمسه في عقيدتي ،
وتصورى .

إنني أؤمن بأن الجهاد هو الركن السادس في الإسلام . . فقد كتب
الله علينا القتال كما كتب علينا الصيام ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والحج ،
وكلها فرائض تعد الأجيال لحمل الرسالة وأداء الأمانة .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

كيف نسمع أو نقرأ هذه الآية ثم لانخشع ، ثم لانشعر بالرهبة ،
هذه المسئولية ، مسئولية القرآن التي تتصدع أمامها الجبال ؟
لنتدبر أمرنا مع القرآن الكريم في موقف نجعله مثلاً . . لننظر موقف
القرآن من المجتمعات الظالمة . . إنه يقول :

(وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ

عَلَى عُرُوشِهَا) .

لماذا ؟

إنه سبحانه يحسم معنى الظلم والتناقض في نفس الآية :

(وَبَشِّرِ مُعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) .

كيف تكون هناك عدالة أو رحمة ، وهناك قصر مشيد ، ويجانبه
بئر معطلة ؟

الماء . . ألزم ما يكون لحياة الإنسان . . نصب معينه . . وأين ؟ . .
يجواره هذا القصر المشيد . . كيف يستقيم الأمر ؟

إن الله تعالى يريد أن يبين لأمة القرآن أن الإسلام في حقيقته
وجوهره دين اجتماعي . فإن تصور أحد أنه بصلاته وصيامه قد وجد طريقه
إلى الجنة ، فهذا إسلام ناقص ، وإسلام عاجز ، ولا بد أن يكتمل هذا
الدين بتطبيقه الاجتماعي ، وذلك الذي يجعل من الفرد المسلم قوة وسنداً
لأخيه المسلم ، فإذا كانت الحرب فكلهم إخوة في الميدان ، وإن كان
الجهاد فكلهم صف واحد ، لا يتصورون الجهاد وقفاً على فرد أو جماعة ،
ولأنما يعني جميع المسلمين في ديار الإسلام . . وبهذا لا تستطيع أية قوة
مهما كبرت ، أن تفت في عضد المسلمين ، أو تنال من عزة العرب ،
فإذا عز العرب عز الإسلام . وإذا ذل العرب ذل الإسلام .

وإننا لنعلنها من هنا ، من القاهرة المعز ، عالية مدوية ، أنه لن تقف
في طريقنا قوة ، إذا نحن أعلينا راية القرآن ، وتخلقنا بخلق القرآن ، ودعونا
للعالمين إلى القرآن ، وكنا جديرين بحمل رسالة القرآن .

علينا فقط أن نعود إلى قرآنا ، وإلى أحكام ديننا لنذكر أنه خطة
للبناء لا فضل مجتمع . . أمة الصدارة خير أمة أخرجت للناس .

ولذلك أعتقد أن علينا في الأزهر مهمة كبرى ، هي قيادة الدعوة
إلى القرآن ، وتنسيق جهود المنظمات الإسلامية في هذا الميدان ، على
الأزهر أن ينقل إلى الناس أحداث وأسباب نزول القرآن . . لكي

ننفع في كل موقف الاتفعال الواجب ، الذي دعاه المسلمون الأوائل ،
حينما نزل عليهم القرآن ، مجيباً على كل سؤال ، ومقدماتاً لكل
مشكلة ، فكان ذلك الاتفعال . بل كان الإيمان الذي هد الجبال .
كان ذلك الإيمان الذي جعل فئة قليلة من المؤمنين ، تنطلق انطلاقاً
الصواريخ ، فتفتح الأمصار وتمد رقعة الإسلام إلى أطراف الأرض ،
حتى ارتفعت من الأندلس إلى الصين راية التوحيد ، وحتى أصبح تعداد
المسلمين اليوم سبعمائة مليون أو يزيدون .
كلهم سيكونون معنا في المعركة ، لو أعطينا ذكر القرآن ، ونخلقنا
بخلق القرآن ، وكنا جديرين بحمل أمانة القرآن .

خاتمة

دعاء النصر

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

إن حادث الإسراء والمعراج ، ليس أمراً عادياً ينحصر أثره في زمان
أو مكان ، ولكنه قبس يهتدى به الإنسان على مر العصور والأجيال ،
فقد ربط بين الإسلام وبين الرسالات السابقة ، في وحدة عقائدية لا تنفصم
عراها أبداً . فقد كان إيذاناً بأن رسل الله جميعاً إخوة صدق ، أقاموا في
الأرض موازين الحق ، ونشروا في دنيا الناس العدل والخير والمحبة
والسلام .

(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، لِيَثْلَأَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى
اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

حادث الإسراء والمعراج يؤكد أن الأنبياء جميعاً بناء بيت واحد ،
يضع آخر لبنة فيه أشرف ونخاتم الأنبياء ، صاحب هذه الذكرى . .
وهذه الذكرى تجدد ، فينا حكمة الله في الرسالات — وإن اختلفت
الأزمان وتعددت الرسل — فهي واحدة في دعوتها وغايتها ، جاء الرسل

لتبليغها ، وليرفعوا جميعاً علم التوحيد والإيمان ، فوق بيوت أذن الله أن ترفع ليذكر فيها اسمه ، ومنازل الوحي لا بد من تطهيرها من بذور الشرك والوثنية والفساد والطغيان .

وإذا كان على المسلمين تطهير المسجد الحرام ، فإن المسجد الأقصى كذلك واجب تطهيره من كل ما تأباه الرسالات الإلهية ولا يرضى عنه الله ، ولقد كان لذلك أثره في قلوب المسلمين فامتألت بحبه ، وامتد ذلك إلى جميع الآثار الدينية من حوله .

فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين ، كتب لأهل « القدس » من النصارى عهداً يلزم به من يخلفه من بعده ، وهو ألا تمس كنائسهم ولا يتقص منها ، كما يقضي بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم . وحينما أدركته الصلاة وهو في الكنيسة قال : أين أصلي ؟ فقبل له « صل مكانك » ، فقال رضى الله عنه : « ما كان لي أن أصلي ههنا فيتخذ المسلمون من بعدى هذا المكان مسجداً » .

والتاريخ لم يعرف عن العرب تعصباً ، وإنما كان شعارهم التسامح والمحبة إلا إذا اعتدى عايهم معتد ، أوعدا على أرضهم غاصب ، فحينئذ يحتم عليهم الشرف الإنسانى وقضية الدفاع عن السلام والحرية ، أن يردوا الاعتداء ، ولا يتركوا لسياسة القوة أن تعيث في الأرض فساداً ، أو تقلب الباطل حقاً ، وتحيل الظلم عدلاً :

(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) .

هذه دعوة الإيمان التى تتمثل في حياة الأفراد والأمم : سلوكاً وعملاً ، وقرلاً وفعلاً ، وقوة في الحق وتضحية وبذلاً .

والمؤمنون حقاً هم أصحاب الحسم العالية . والعزائم القوية والأيدى البناءة ، هم أصحاب القلوب الواثقة . هم الذين يحملون أعباء الحياة بشرف وأمانة ، فلا يعتورهم ضعف ، ولا يتطرق إليهم وهن :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

والمسلمون اليوم تكتوى قلوبهم بأنباء ما يجري في المسجد الأقصى ، وكيف استباح الصهاينة حماه ، وانتهكوا حرماته ، وعبثوا بمقدساته ، وسفكوا من حوله الدماء ، وقتلوا الأبرياء ، كما قتلوا من قبلهم الأنبياء ، ونكلوا بالأطفال والشيوخ والنساء بغياً وعدواناً وزوراً وبهتاناً .
كما يؤمن المسلمون تمام الإيمان أنه أمانة في أعناقهم وجوهرة غالية في تاريخهم ، تربط الماضي بالحاضر والأمس باليوم ، وهم مسئولون عنه ، وعن تطهيره من رجس الآثمين .

والأمة التي تحمي مقدساتها وتذود عنها ، أمة ذات عقيدة ومبادئ ، تحيا من أجلها ، وتجاهد في سبيلها على هدى من ربها ، وثقة في عون الله لها .

قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعلن : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

والعدو الذي ، ياجهه المسلمون والعرب عدو ما كر غادر حاقد فاجر ، عاش على مر التاريخ متنكراً لكل المبادئ والقيم ، كافراً بجميع العهود والمواثيق ، لا تجمعها جامعة ، ولا تضمه رابطة ، ومن أجل ذلك يصطنع المبادئ التي يجتمع من حولها ، ويغري بالخدعة والتآمر على مساعدتها ومساندتها .

لقد عاش دهرًا طويلاً ينشد الاستقرار حتى وجده في فلسطين في ظل سماحة الإسلام والمسلمين ، فهل حفظ الحميل ، وشكر المعروف ، لقد كان كالأفعى متى شعرت بالدفء ودبت في أوصالها الحركة ، أسرعت تنفث السم لتهلك من حولها ، وتفتك بأقرب الناس منها ، وكانت للضحية في ذلك كله فلسطين بمساندة قوى المستعمر الأثيم !

إن القوى التي تساند إسرائيل لاتساندها إيماناً بها أو اقتناعاً بمبادئها ، وإنما تساندها طمعاً في أصواتها ، وتطلعاً إلى دعاياتها ومالها ، واستخداماً لها في مخططاتهم الاستعمارية الباغية ، والمال والدعاية هما وسيلتا الصهيونية العالمية في التأثير على القوى المتخاذلة التي لا تملك من أمرها شيئاً ، ولا سبيل لها إلا أن تنافق الصهاينة في مخططاتهم وفي وسائلهم السرية التي تعتمد على جمع المال سيطرة ، وعلى التحكم في الدعاية سبيلاً لطمس الحقيقة والحق .

وإننا لانتصور أبداً أن القوى المساندة لإسرائيل تنتصر لكل ذلك إلا نفاقاً ورياء وتصوراً قاصراً عن إدراك حقيقة .

وفي هذا يصور الله سبحانه وتعالى موقف المساندة والنفاق عندما يقرر في سورة الحشر في قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ
 قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ
 لَا يَنْصُرُونَ) .

ففي هذا اليوم المبارك نبشر بأن نصر الله قريب ، وهذه البشري
 لاتستند إلى عاطفة متفائلة ، ولا إلى وعد من الله فحسب ، ولكن
 يؤكدوا الواقع حين نتجه في كفاحنا ونضالنا إلى الله عز وجل ، نعهده
 وعداً بأننا سنكون عند عهده : المؤمنين به ، الواثقين فيه ، المتوكلين
 عليه ، نعمل العمل الصالح ، ونعد ونستعد كما أمر ، وننصره كما أمر ،
 ونعمل بإيمان كما أمر ، وبذلك وحده يكون نصره بأسبابه ، ومساندته
 لقاء عملنا ، ووعد به بقدر التزامنا .

وهذه البشري عندما نبشر بها يتضح لأولئك الذين يساندون
 إسرائيل ضلال سعيهم وإفك مسعاهم ، لما يلمسون من تضامن العرب
 والمسلمين ، والتزامهم بالصبر والصلاة ، وعملهم الدائب من أجل تحرير
 أرضهم ، واستعادة حقهم وإعادة مسجدهم ، لتعلو من فوقه شهادة أن
 لا إله إلا الله ، ويولي المنافقون الأدبار ، وتلقى إسرائيل حسابها العادل ،
 وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

« يارب . . يا من نتوكل عليك ، ويا من نثق فيك ونتجه إليك . .
 بحق هذه الذكرى وبحقك ، يا من أسريت بعبدك ليلاً إلى المسجد
 الأقصى ، نستعين بذاتك العلية ونتجه إلى عزتك وقدرتك المتعالية ،
 فأنت القاهر فوق عبادك ، وأنت الرحمن الرحيم .

أنت إلهنا لا إله إلا أنت إذا قضيت أمراً فإنما تقول له كن فيكون
فلمن تكلنا ونحن عبادك وحملة قرآنك وأمتك التي قلت فيها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

لمن تكلنا ، الأولئك الذين قتلوا الأنبياء بغير حق ، وكفروا بكتابك
وأنبيائك : فأليك نلجأ أن توفقنا لطاعتك والعمل والجهاد في سبيلك ،
حتى نكون أهلاً لنصرك ، وأن ترفع عنا الغمة ، وأن تنصر هذه الأمة ،
وأن تكون ولينا ، فأنت نعم المولى ونعم النصير .

* * *

وإني إذ أختتم هذه الحواطر التي عنت لي بمناسبة مولد الرسول أعود
فأذكر الآية الكريمة :

(... وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى
أَعْيُنُهُمْ تَفْرِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا
آمَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

* * *

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . وأدعوه سبحانه أن يهب لنا
من لدنه رحمة ، ويهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأرجو الله لنا ولكم التوفيق
والسداد والعمل الإيجابي في خدمة الإسلام دين القوة البناءة ، ودستور
الرحمة للعالمين .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٣٠٨٧ / ١٩٧١

طابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١

دار المعارف بمصر

تقدم

سورة الرحمن وسور قصار

[عرض ودراسة]

للدكتور شوقي ضيف

مجموعة من سور القرآن الكريم تفسر في ظل منهج تفسيري
قويم يعتمد على القرآن ذاته في تفسيره - وعلى الحديث الشريف
- تشتمل على :

فاتحة الكتاب . سورة الرحمن وهي سورة النعم الدنيوية
والآخروية . سورة الملك . سورة التكويد . سورة الأعلى .
سورة الشمس . سورة العصر . سورة الماعون . سورة الإخلاص .
سورة الفلق .

وهذه السور هي التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية وبعض
مبادئ الإسلام الخلقية والاجتماعية - بسطها الدكتور المؤلف
من خلال آيات الذكر الحكيم ، بحيث يتخذ من الآية نوراً
يهديه إلى مضمونها العام في القرآن الكريم ، ويحاول عرضه ووصفه
سواء اتصل ذلك بعظمة الله وجلاله ورحمته وآلائه في الدنيا
والآخرة ، أو بالرسالة والرسول ، أو بالملائكة والجن والشياطين ،
أو بماهية الحياة بعد الموت والثواب والعقاب في الآخرة ، أو بالتهذيب
الروحي والخلق ، أو بالعلاقات العمرانية ، أو بتحرير الإنسان
الحوي والخرافات ، وجملة الآثام ، أو بدفعه إلى استغلال
وكشف قوانين الكون وأسراره ، أو بإيقاظ وجدانه ومكنه
والسمو به إلى الكمال الإنساني المأمول .

الثنى ٩٠

٤٠٤ صفحات . قطع كبير

خذ المعارف من دار المعارف

Bibliotheca Alexandrina



0206511

مكتبة الإسكندرية
ALEXANDRIA